
روزا
لوكسمبورغ
بقلم: **توني كليف**
ترجمة: وليد ضو
المنتدى الاشتراكي – لبنان

روزا لوكسمبورغ

ترجمة: وليد ضو

المنتدى الاشتراكي – لبنان، ٢٠١٨

سيرة روزا لوكسمبورغ

ولدت روزا لوكسمبورغ في مدينة زاموسك الصغيرة يوم ٥ آذار/مارس ١٨٧١. منذ بداية شبابها نشطت في الحركة الاشتراكية. فقد انضمت إلى حزب ثوري يدعى "بروليتاريا"، الذي تأسس عام ١٨٨٢، أي قبل ٢١ سنة من تأسيس الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي (البلشفي والمنشفي). منذ البداية كان حزب "بروليتاريا"، في مبادئه وبرنامجه، متقدما خطوات عن الحركة الثورية في روسيا. في حين اقتصرت الحركة الثورية في روسيا على الأعمال الإرهابية الفردية التي يقوم بها عدد من المثقفين المغامرين، كان "بروليتاريا" ينظم ويقود الآلاف من العمال خلال الإضراب. عام ١٨٨٦، تلقى "بروليتاريا" ضربة كانت عمليا شبه قاضية عبر إعدام ٤ من قادته وسجن ٢٣ آخر لمدة طويلة مع الأشغال الشاقة، ونفي أكثر من ٢٠٠. نجت مجموعة صغيرة من ذلك، ومن بينهم كانت روزا لوكسمبورغ التي انضمت إليهم عن عمر ١٦ سنة. عام ١٨٨٩ لاحقتها الشرطة، فاضطرت إلى مغادرة بولندا، اعتقد رفاقها أنها ستكون مفيدة في العمل من الخارج مما لو كانت في السجن. فذهبت إلى سويسرا، وتحديدا إلى زيوريخ التي كانت مركزا مهما للهجرة البولندية والروسية. فدخلت إلى الجامعة وتعلمت العلوم الطبيعية والرياضيات والاقتصاد. ولعبت دورا نشيطا في الحركة العمالية المحلية وفي الحياة الفكرية القوية للمهاجرين الثوريين.

لم يمض أكثر من بضعة سنوات حتى جرى الاعتراف بروزا لوكسمبورغ كالزعيمة النظرية للحزب الاشتراكي الثوري في بولندا. وقد أصبحت المساهمة الرئيسية لمجلة الحزب، حال العمال (Sprawa Rabotnicza)، التي تصدر في باريس. عام ١٨٩٤ تغير اسم حزب "بروليتاريا" ليصبح الحزب الاشتراكي الديمقراطي لمملكة بولندا؛ بعد ذلك بوقت قصير أضيفت ليتوانيا إلى الاسم. واستمرت روزا قائدة نظرية للحزب (SDKPL) حتى نهاية حياتها.

في شهر آب/أغسطس عام ١٨٩٣ مثلت الحزب في مؤتمر الأممية الاشتراكية. هناك، وكشابة عمرها ٢٢ سنة، كان عليها أن تتعامل مع المناضلين المعروفين لحزب بولندي آخر، الحزب الاشتراكي البولندي، الذي كان هدفه الرئيسي تحقيق استقلال بولندا والذي نال تأييد جميع الزعماء المحنكين في الأممية الاشتراكية. وكان لتأييد الحركة الوطنية في بولندا ثقلا كبيرا خلفه: ماركس وإنجلز، عبر جعله هدفا رئيسيا لسياستهما. دون أن تخشى من كل ذلك، استهدفت روزا لوكسمبورغ الحزب الاشتراكي البولندي، متهمته بنزعة قومية واضحة وقابليته لتحييد العمال عن طريق الصراع الطبقي؛ فتجرأت على اتخاذ موقفا مغايرا للسادة القدماء وعارضت شعار استقلال بولندا. (للمزيد حول ذلك، راجع/ي: روزا لوكسمبورغ والمسألة الوطنية). وقد انهال خصومها عليها بالاتهامات المهينة، مثل تلميذ وصديق ماركس وإنجلز المخضرم، ويلهلم ليبكنخت، الذي ذهب إلى حد اتهامها بأنها عميلة للمخابرات القيصرية. ولكنها أصرت على موقفها.

وقد نمت فكريا بسرعة فائقة. وانجذبت بقوة إلى مركز الحركة العمالية العالمية، ألمانيا، حيث شقت طريقها منذ العام ١٨٩٨.

وبدأت بالكتابة الدؤوبة، وبعد فترة أصبحت واحدة من المساهمين الرئيسيين في المجلة النظرية الماركسية الأهم في ذلك الوقت، الأزمنة الحديثة (Die Neue Zeit). مستقلة دائما في الحكم والنقد، حتى في ظل الهيبة الهائلة لرئيس تحريرها كارل كاوتسكي، "بابا الماركسية" كما كان يسمى، لم يمنعها من إبداء رأيها ما إن تصبح مقتنعة به.

انضمت روزا لوكسمبورغ بقلبها وروحها إلى الحركة العمالية في ألمانيا. كانت مساهمة منتظمة في عدد من الصحف الاشتراكية- وفي بعض الحالات رئيسة تحريرها- وقد خطبت في العديد من اللقاءات الجماهيرية ولعبت دورا فعالا في كل المهمات التي طلبتها الحركة منها. في كل خطبها ومقالاتها كانت أعمالا ابداعية أصيلة، حيث ناشدت العقل بدلا من العاطفة، وكانت دائما تفتح أمام قرائها آفاقا أوسع وأكبر مما كانوا يعرفونه من قبل.

في ذلك الوقت انقسمت الحركة في ألمانيا إلى اتجاهين أساسيين، الأول إصلاحي والثاني ثوري، مع تنام في قوة الأخير. كانت ألمانيا تتمتع بازدهار مستمر منذ ركود العام ١٨٧٣. وقد تحسنت معيشة العمال بشكل مستمر وإن كان بشكل بطيء؛ وتنامت قوة النقابات والتعاونيات أكثر فأكثر.

بهذه الخلفية، فإن بيروقراطية هذه الحركات، إلى جانب تزايد التمثيل البرلماني للحزب الاشتراكي الديمقراطي، ابتعدت عن فكرة الثورة مقدمة قوة كبيرة لأولئك الذين يتبنون مبدأ الانتقال التدريجي أو الإصلاح. وكان إدوارد برنشتاين المتحدث الأساسي باسم هذا الاتجاه، أحد مريدي إنجلز. بين عامي ١٨٩٦ و١٨٩٨ كتب برنشتاين سلسلة من المقالات في مجلة الأزمنة الحديثة حول مشاكل الاشتراكية، وقد هاجم فيها بشكل متصاعد المبادئ الماركسية. وأدى ذلك إلى اندلاع نقاشات طويلة ومريرة. وكانت روزا لوكسمبورغ قد دخلت للتو في الحركة العمالية الألمانية، فهبت للدفاع عن الماركسية. ببراعة وبدافع رائع، هاجمت انتشار السرطان الإصلاحي في كتيبها، إصلاح أو ثورة اشتراكية. (للمزيد حول ذلك، راجع/ي: إصلاح أو ثورة).

بعد ذلك بوقت قصير، وفي عام ١٨٩٩، دخل "الاشتراكي" الفرنسي ميلرند في حكومة ائتلافية مع حزب رأسمالي. وقد تابعت روزا لوكسمبورغ هذه التجربة عن كثب وحللتها ضمن سلسلة من المقالات الرائعة للتعامل مع الوضع ضمن الحركة العمالية الفرنسية بشكل عام، ومسألة الحكومات الائتلافية بشكل خاص (للمزيد حول ذلك، راجع/ي: إصلاح أو ثورة). بعد الفشل الذريع لماكدونالد في بريطانيا، وجمهورية فايمار في ألمانيا، والجبهة الشعبية في فرنسا خلال الثلاثينات والحكومات الائتلافية خلال فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية في البلد نفسه، من الواضح أن الدروس التي استقتها روزا لوكسمبورغ ليست فقط ذات أهمية تاريخية.

عامي ١٩٠٣-١٩٠٤ انغمست روزا لوكسمبورغ في جدال مع لينين، حيث سبق لهما أن اختلفا على المسألة الوطنية (راجع/ي: روزا لوكسمبورغ والمسألة الوطنية)، على مفهوم بناء الحزب، والعلاقة بين الحزب ونشاط الجماهير (راجع/ي: الحزب والطبقة).

في عام ١٩٠٤، وبعد "إهانة القيصر" حكم عليها بالسجن لمدة ثلاثة أشهر، أمضت شهرا واحدا منهم وراء القضبان فقط.

عام ١٩٠٥، مع اندلاع الثورة الروسية الأولى، كتبت سلسلة من المقالات والكتيبات للحزب البولندي، طورت فيها فكرة الثورة الدائمة، التي تم تطويرها بشكل مستقل من قبل تروتسكي وألكسندر بارفوس ولكن اقتصر تأييدها على عدد قليل من الماركسيين في ذلك الوقت. في حين كان البلاشفة والمناشفة، وعلى الرغم من الانقسام العميق بينهما، قد اعتقدوا أن الثورة الروسية كانت ستكون ثورة برجوازية، اعتبرت روزا لوكسمبورغ أنها ستتطور متجاوزة مرحلة الديمقراطية البرجوازية وإما أن تنتهي حتى يتولى العمال السلطة أو تصاب بهزيمة كاملة. وكان شعارها "ديكتاتورية البروليتاريا والفلاحين الثورية". (لم يكن عن عبث عندما ندد ستالين بلوكسمبورغ بعد وفاتها عام ١٩٣١ حين وصفها بأنها تروتسكية (١)).

ومع ذلك، أن تفكر وتكتب وتخطب عن الثورة لم يكن كافيا لروزا لوكسمبورغ. كان شعار حياتها "في البدء كان الفعل". وعلى الرغم من أنها كانت بحالة صحية سيئة في ذلك الوقت، دخلت عن طريق التهريب إلى بولندا الروسية في أقرب وقت كانت قادرة فيه على ذلك (في كانون الأول/ديسمبر ١٩٠٥). في ذلك الوقت كانت ذروة الثورة قد تلاشت. لكن الجماهير كانت لا تزال ناشطة، لكنها باتت الآن مترددة في وقت كانت فيه الرجعية تطل برأسها. كانت كل الاجتماعات ممنوعة، ولكن كان العمال ما زالوا يعقدون اجتماعاتهم في معاقلهم، وفي المصانع. كل الصحف العمالية كانت ممنوعة، ولكن صحيفة حزب روزا لوكسمبورغ كانت تظهر على نحو يومي، على الرغم من طباعتها سرا. في ٤ آذار/مارس عام ١٩٠٦ اعتقلت وسجنت لمدة أربعة أشهر، في البداية في سجن ومن ثم في قلعة. بعد ذلك أطلق سراحها، بسبب ضعف صحتها وجنسيتها الألمانية، وطردت من البلاد.

ثورة ١٩٠٥ في روسيا قدمت لروزا أفكارا لتصور تخيلته منذ بضعة سنوات: أن الإضرابات الجماهيرية- السياسية والاقتصادية- تشكل عنصرا أساسيا في نضال العمال الثوري من أجل السلطة، وهذا ما يميز الثورة الاشتراكية عن كل الثورات السابقة. فبلورت عندها هذه الفكرة على أساس تجربة تاريخية جديدة (راجع/ي: الإضراب الجماهيري والثورة).

وعندما تحدثت في هذا الشأن خلال ندوة علنية، اتهمت بـ"التحريض على العنف"، وقضت شهرين آخرين في السجن، هذه المرة في ألمانيا.

عام ١٩٠٧ شاركت في مؤتمر الأممية الاشتراكية الذي عقد في شتوتغارت. وتحدثت باسم الأحزاب الروسية والبولندية، مطورة موقفا ثوريا ثابتا ضد الحرب الامبريالية والعسكرة (راجع/ي: النضال ضد الامبريالية والحرب).

بين عامي ١٩٠٥ و١٩١٠ زاد الانقسام بين روزا لوكسمبورغ والقيادة الوسطية للحزب الاشتراكي الديمقراطي، حيث كان كاوتسكي يمثل لسان حالها النظري. عام ١٩٠٧ تخوفت روزا لوكسمبورغ من أن قياديي الحزب، على الرغم من اعتناقهم الماركسية، سيحجمون أمام وضع يتطلب عملا حاسما. وكانت الذروة عام ١٩١٠، مع قطيعة تامة بين روزا لوكسمبورغ وكارل كاوتسكي حول مسألة طريقة وصول العمال إلى السلطة. مذاك انقسم الحزب الاشتراكي الديمقراطي إلى ثلاثة أجنحة: الجناح الاصلاحي الذي تبنى بالتدرج سياسة امبريالية؛ وما يسمى بجناح المركز الماركسي بقيادة كاوتسكي (الذي تلقبه الآن لوكسمبورغ بـ "زعيم المستنقع") الذي حافظ على راديكالية لفظية ولكن اقتصر عمله أكثر فأكثر على تبني البرلمانية في النضال؛ أما الجناح الثوري فكانت روزا لوكسمبورغ مصدر إلهامه الرئيسي.

عام ١٩١٣ نشرت روزا لوكسمبورغ عملها النظري الأكثر أهمية، "تراكم رأس المال: مساهمة في التفسير الاقتصادي للامبريالية". كان هذا الكتاب من دون شك واحد من أكبر المساهمات الأصيلة للنظرية الماركسية الاقتصادية منذ كتاب رأس المال. بغناها المعرفي وتألق أسلوبها وتحليلها واستقلالها الفكري الواضح، كان هذا الكتاب، كما قال ميهرينغ، كاتب سيرة ماركس، الأقرب إلى كتاب رأس المال من أي عمل ماركسي آخر. المشكلة المركزية أنه يدرس بأهمية نظرية وسياسية شديدة: ما هي آثار توسع تمدد الرأسمالية إلى مناطق جديدة ومتأخرة على التناقضات الداخلية وعلى استقرار النظام (لمراجعة تحليلنا لهذا العمل: تراكم رأس المال).

في ٢٠ شباط عام ١٩١٤ اعتقلت روزا لوكسمبورغ لتحريضها الجنود على التمرد. وكان أساس هذا الاتهام خطابا لها أعلنت فيه: "إذا كانوا يتوقعون منا أن نقتل أخانا الفرنسي أو غيره من الأخوة الأجانب، إذاً دعونا نقول لهم: "لا، تحت أي ظرف من الظروف". في المحكمة تحولت من متهمة إلى مدعية، وخطابها الذي نُشِرَ لاحقا بعنوان "العسكرة والحرب والطبقة العاملة"، هو واحد من أكثر الإدانات الاشتراكية الثورية الملهمة بوجه الامبريالية. وحكم عليها بالسجن لمدة سنة ولكنها لم تعتقل فورا. وبعد مغادرتها قاعة المحكمة ذهبت فورا إلى لقاء جماهيري كررت خلاله دعايتها الثورية المناهضة للحرب.

عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى، ارتد، عمليا، معظم قادة الحزب الاشتراكي الديمقراطي لتبني ميلا وطنيا. في ٣ آب/أغسطس عام ١٩١٤، قررت المجموعة البرلمانية للحزب الاشتراكي الديمقراطي التصويت لصالح قرار حرب حكومة القيصر. من بين ١١١ نائبا أظهر ١٥ نائبا فقط رغبتهم بالتصويت ضد الحرب. ومع ذلك، وبعد أن تم رفض طلبهم الحصول على إذن للقيام بذلك،

وامتثلوا لانضباط الحزب، وفي ٤ آب/أغسطس صوتت كامل المجموعة البرلمانية للحزب الاشتراكي الديمقراطي لصالح الحرب. بعد بضعة أشهر، في ٢ كانون الأول/ديسمبر، خرق كارل ليبكنخت الانضباط الحزبي منحازا لضميره. كان صوته الوحيد ضد الحرب.

وكان قرار قيادة الحزب هذا بمثابة الضربة القاضية لروزا لوكسمبورغ. ومع ذلك، قالت أنها لن تفسح مجالا لليأس بأن يتسرب إليها. في اليوم نفسه، ٤ آب/أغسطس، وفي وقت احتشد فيه نواب الحزب الاشتراكي الديمقراطي تحت لافتة القيصر، التقت مجموعة من الاشتراكيين في شقتها وقررت أن تباشر النضال ضد الحرب. المجموعة التي قادتها روزا لوكسمبورغ وكارل ليبكنخت وفرانز ميهرينغ وكلارا زيتكن أصبحت لاحقا عصبة سبارتاكوس. لمدة أربع سنوات، أغلبها من السجن، واصلت روزا قيادة وإلهام وتنظيم الثوار، محافظة على ارتفاع راية الاشتراكية الأممية (للمزيد من التفاصيل حول سياستها المناهضة للحرب، راجع/ي: النضال ضد الإمبريالية والحرب).

اندلاع الحرب قطع روزا لوكسمبورغ عن الحركة العمالية البولندية، ولكنها كانت راضية بعمق من واقع أن حزبها البولندي بقي مخلصا لمبادئ الاشتراكية الأممية.

وكانت الثورة الروسية في شباط/فبراير ١٩١٧ تحقيقا لسياسة روزا لوكسمبورغ المعارضة للحرب والمناضلة من أجل الإطاحة بالحكومات الامبريالية. بحماس شديد تابعت مجريات الأحداث من السجن، ودرستها عن كثب من أجل استخلاص الدروس للمستقبل. بدون تردد، أعلنت أن نصر شباط ليس نهاية النضال، إنما بدايته، وأن وحدها سلطة العمال ستضمن السلام. من السجن أصدرت النداءات المتتالية تدعو فيها العمال والجنود الألمان حتى يحذوا حذو إخوانهم الروس، وإسقاط النظام الحاكم والرأسماليين، وبالتالي، وفي وقت يخدمون فيه الثورة الروسية، عليهم في الوقت عينه منع أنفسهم من النزف حتى الموت تحت أنقاض البربرية الرأسمالية.

وعندما اندلعت ثورة تشرين الأول/أكتوبر رحبت روزا لوكسمبورغ بحماسة شديدة، مشيدة بها بأشد التعابير. في الوقت عينه، لم تعتقد أن الموافقة دون نقد لكل ما فعله البلاشفة سيكون في خدمة الحركة العمالية. وتوقعت بوضوح أنه إذا بقيت الثورة الروسية معزولة فإن عددا من التشوهات سيشل تطورها؛ وعند بداية نشوء روسيا السوفياتية، أشارت في وقت مبكر جدا إلى مثل هذه التشوهات، وخاصة بشأن مسألة الديمقراطية (راجع/ي: نقد روزا لوكسمبورغ للبلاشفة في السلطة).

في ٨ تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩١٨ حررت الثورة الألمانية روزا لوكسمبورغ من السجن. بكل طاقتها وحماسها ارتمت في أحضان الثورة. للأسف كانت قوى الرجعية قوية. انضم الجناح اليميني من قادة الحزب الاشتراكي الديمقراطي وجنرالات الجيش القيصري القديم للقوى القامعة للطبقة

العاملة الثورية. فقتلوا الآلاف من العمال؛ وفي ١٥ كانون الثاني/يناير عام ١٩١٩ قُتِل كارل ليبكنخت. في اليوم نفسه، حطم أحد الجنود بكعب بندقيته جمجمة روزا لوكسمبورغ.

بمقتلها خسرت الحركة العمالية الأممية واحدة من أنبل أرواحها. انطفأ "أجود الأدمغة من بين الخلفاء العلميين لماركس وإنجلز"، كما قال ميهرينغ. في حياتها ومماتها أعطت كل شيء من أجل تحرر الإنسانية.

—

الهوامش:

(1) See J.V. Stalin, Works, vol.XIII, pp.86-104.

إصلاح أو ثورة؟

ركّزت روزا لوكسمبورغ في معظم أعمالها على النضال ضد الفكر الإصلاحي الذي كان يضيق الخناق على أهداف الحركة العمالية من خلال ترقيع الرأسمالية عوضا عن الإطاحة بها عبر وسائل ثورية. وكان إدوارد برنشتاين أبرز المدافعين عن الفكر الإصلاحي (أو التحريفية، كما كان معروفا وقتها) والذي وجهت روزا نقدها نحوه. وقد فندت وجهة نظره في كتيبها المعنون بـ"إصلاح اشتراكي أم ثورة اشتراكية"، والذي يتألف من سلسلتين من المقالات التي نشرت في جريدة (Leipziger Volkszeitung)، الأولى في أيلول عام ١٨٩٨ كرد على مقالات برنشتاين (Die Neue Zeit)، والثانية في نيسان ١٨٩٩ كرد على كتابه "الشروط المسبقة للاشتراكية والمهام الاشتراكية الديمقراطية".

برنشتاين أعاد تعريف الطابع الأساسي للحركة العمالية واعتبرها "حزبا إصلاحيا اشتراكيا ديمقراطيا" وليست حزبا للثورة الاشتراكية. وعلى العكس من ماركس، اعتبر برنشتاين أن التناقضات داخل الرأسمالية لا تظهر بشكل واضح، إنما يجري باستمرار تخفيفها، فيتم ترويض الرأسمالية بشكل مطّرد، ويزداد ذلك إلى أن يصبح أكثر تكيّفاً. والكارتيلات والتروستات والمؤسسات الائتمانية تنظم بتدرج الطبيعة الفوضوية للنظام، لذلك، وبدلاً من حصول انهيارات مالية واقتصادية كما تصوّر ماركس، هناك ميل ضمن النظام الرأسمالي للوصول إلى حالة من الازدهار الدائم. كما تضعف التناقضات الاجتماعية بحسب وجهة نظر برنشتاين، من خلال استمرار الطبقة الوسطى وتوزيع أكثر ديمقراطية لملكية رأس المال عبر شركات الأسهم. قدرة النظام على التكيف لتلبية الاحتياجات في تحسين الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للطبقة العاملة كنتيجة لحراك النقابات والتعاونيات.

انطلاقا من هذا التحليل يخلُص برنشتاين إلى أن الحزب الاشتراكي يجب أن يكرّس نفسه من أجل التحسين التدريجي لظروف الطبقة العاملة، وليس بهدف الاستيلاء الثوري على السلطة السياسية.

على العكس من برنشتاين، اعتبرت روزا لوكسمبورغ أن الاحتكارات الرأسمالية (الكارتيلات والتروستات) والمؤسسات الائتمانية تميل إلى تعميق التناقضات داخل النظام الرأسمالي وليس إلى التخفيف منها. وتصف وظيفتها:

"بشكل عام، الكارتيلات... تظهر كمرحلة محددة من التطور الرأسمالي، حيث في التحليل الأخير تُفاقِم من حدّة الفوضى في النظام الرأسمالي وتمظهر وتنضج التناقضات الداخلية. الكارتيلات تزيد من العداء القائم بين نمط الانتاج والتبادل من خلال تعميق الصراع بين المنتج والمستهلك... وذلك يزيد، علاوة عن ذلك، التناقضات بين نمط الانتاج ونمط الاستيلاء المقابل، بطريقة أكثر وحشية، بالنسبة إلى الطبقة العاملة والفئة المسيطرة داخل النظام الرأسمالي المنظم، وبالتالي زيادة التناقضات بين رأس المال والعمال.

أخيرا، التمركز الرأسمالي يفاقم التناقض القائم بين الطابع الدولي للاقتصاد الرأسمالي العالمي والطابع المحلي للدولة- بقدر ما يكون ذلك مصحوبا بـ"الحرب" بالرسوم الجمركية، التي تزيد من الخلافات بين الدول الرأسمالية. يجب أن نضيف إلى ذلك التأثير الثوري الأكيد الذي تسببه الكارتيلات على تركيز الانتاج والتقدم التقني...

وبكلمات أخرى، عندما يتم تقديمها من زاوية تأثيرها النهائي على الاقتصاد الرأسمالي، الكارتيلات والتروستات تفشل كـ"وسيلة للتكيف". وتفشل في تخفيف التناقضات الرأسمالية. وعلى العكس من ذلك، فإنها تظهر كوسيلة تسبب فوضى أكبر. وهي تشجع لنمو التناقضات الداخلية للرأسمالية. وهي تسرع في حصول انهيارات رأسمالية" (١).

الائتمان، تضيف روزا لوكسمبورغ، وبعيدا عن الالتفاف على الأزمة الرأسمالية، يعمّق ذلك بالفعل. الوظيفتان الأساسيتان للمؤسسات الائتمانية تكمن في توسيع الانتاج وتسهيل التبادل، والاثنتان تزيدان من عدم استقرار النظام. أزمة الاقتصاد الرأسمالي تنمو كنتيجة للتناقضات بين ميل الانتاج الدائم للتوسع والقدرة الاستهلاكية المحدودة للسوق الرأسمالي. الائتمان، من خلال تشجيعه للانتاج من جهة، يشجع الميل نحو الافراط في الانتاج، ويعرّض نفسه لعدم استقرار خطير في ظروف غير مؤاتية، فيؤدي ذلك إلى زعزعة الاقتصاد أكثر وتعميق الأزمة. الائتمان في تشجيعه على المضاربة هو عامل آخر يزيد من عدم الاستقرار في نمط الانتاج الرأسمالي.

حجة برنشتاين القوية هي أن التناقضات الرأسمالية انخفضت خلال عقدين من الزمن، منذ العام ١٨٧٣، والرأسمالية لم تتعرض لتراجع حاد. لكن روزا لوكسمبورغ تقول:

"بعد أن استبعد برنشتاين نظرية ماركس للأزمات عام ١٨٩٨، بدأت أزمة عامة وعميقة، ومن ثم ضربت أزمة جديدة الولايات المتحدة، حيث أصابت الأسواق العالمية. فأثبتت الوقائع فشل نظرية "التكيف". وأظهرت في الوقت عينه أن الناس الذين تخلوا عن نظرية ماركس للأزمات وذلك لأنه لم تقع أي أزمة خلال فترة معينة من الزمن فإنهم يخلطون بين جوهر هذه النظرية مع جانب من جوانبها الخارجية الثانوية- دورة العشر سنوات. وصف الدورة الصناعية الحديثة كفترة ١٠ سنوات هو لماركس وإنجلز، بين عامي ١٨٦٠ و١٨٧٠، هو تبيان بسيط للحقائق. ولم يكن مبنيا على القانون الطبيعي ولكن على سلسلة من الظروف التاريخية التي كانت متعلقة بتسارع نمو الرأسمالية الناشئة" (٢).

في الواقع:

"الأزمات قد تتكرر كل ٥ سنوات أو ١٠ سنوات، أو حتى كل ٨ سنوات أو ٢٠ سنة... الاعتقاد بأن الانتاج الرأسمالي يمكنه "التكيف" مع التغيّر يفترض واحد من أمرين: أو أن السوق العالمي يمكن له أن يتوسع بشكل غير محدود، أو على العكس من ذلك، أن تطور القوى المنتجة مقيد لدرجة أنها لا

تستطيع أن تعبر خارج حدود السوق. الفرضية الأولى مستحيلة واقعيا. أما الثانية فيتم اعتبارها مستحيلة لأن التقدم التقني المستمر يخلق يوميا قوى منتجة جديدة في كل الميادين" (٣).

كما هو واقع الحال، تعتبر روزا لوكسمبورغ، أن الأساسي بالنسبة إلى الماركسية هو التناقضات داخل الرأسمالية- بين القوى المنتجة المتزايدة وعلاقات الانتاج- التي تتفاقم أكثر فأكثر. لكن هذه التناقضات يجب أن تعبر عن نفسها من خلال أزمة عامة كارثية "ذات أهمية ثانوية" فقط (٤). شكل التعبير عن التناقض الأساسي لا يقل أهمية عن مضمونه. (وبالمناسبة، روزا لوكسمبورغ لم تشكك في فكرة أن شكلا واحدا من خلاله يمكن للتناقضات الأساسية أن تعبّر عن نفسها في حرب اقتصادية دائمة مع تبديد هائل للقوى المنتجة).

واعتبرت روزا لوكسمبورغ أنه عندما نفى برنشتاين تعمّق التناقضات داخل الرأسمالية إنه ذهب بعيدا عن أسس النضال من أجل الاشتراكية. وبالتالي، تحوّلت الاشتراكية من ضرورة اقتصادية إلى حالة مأمولة ومثالية، إلى يوتوبيا. اشتكى برنشتاين قائلا: "لماذا الاشتراكية ناتجة عن الإكراه الاقتصادي؟... لماذا نُحِطّ من فهم الإنسان، وإحساسه بالعدالة وإرادته؟" (٥). هنا، علّقت روزا لوكسمبورغ:

"برنشتاين يفضّل أن يحصل التوزيع العادل بفضل إرادة الإنسان الحرة، فإرادة الإنسان هي التي تتصرف ولن تنتج عن ضرورة اقتصادية، لأن إرادته هي مجرد أداة، ولكن بسبب فهم الإنسان للعدالة، وبسبب فهم الإنسان لفكرة العدالة.

هكذا نعود بسعادة إلى مبدأ العدالة، إلى حصان الحرب القديمة الذي امتطاه إصلاحيو العالم لسنوات بسبب افتقادهم إلى وسيلة نقل أكثر ثباتاً. وعلينا العودة إلى الحصان روسينانت المأسوف عليه الذي امتطاه دون كيشوت نحو تحقيق الإصلاح العظيم في العالم، ودائما كان يعود إلى منزله وعيونه مسودّة" (٦).

بعيدا عن التناقضات الرأسمالية، تصبح الرغبة بالاشتراكية مجرد توهم مثالي.

إدوارد برنشتاين (والكثير من بعده) ينظر إلى النقابات العمالية كأداة تُضعف الرأسمالية. روزا لوكسمبورغ، على العكس من هذا الرأي، تعتبر أن النقابات يمكن أن تؤثر إلى حد ما في تحديد مستوى الأجور، لكنها لا تستطيع بمفردها الإطاحة بنظام الأجور والعوامل الاقتصادية الموضوعية التي تحدد مستوى الأجور:

"النقابات ليست سوى تنظيمات تدافع عن القوى العاملة ضد هجمات المتربحين. وهي تعبّر عن المقاومة التي تقدّمها الطبقة العاملة بوجه قمع الاقتصاد الرأسمالي.

.. كما لنقابات العمال وظيفة تقوم على التأثير على أوضاع سوق العمالة. ولكن هذا التأثير يتراجع باستمرار من خلال بلترة الطبقة الوسطى، وهو مسار يؤدي إلى اتساع سوق العمل. الوظيفة الثانية للنقابات هي تحسين أوضاع العمال. وهي تحاول الحصول على زيادة لحصة العمال من الثروة الاجتماعية. مع ذلك، هذه الحصة، يجري تخفيضها، بفعل عملية طبيعية عبر نمو انتاجية العمل...

بعبارة أخرى، إن الظروف الموضوعية للمجتمع الرأسمالي تحوّل الوظيفتين الاقتصاديتين للنقابات العمالية إلى عمل سيزيفيّ (٧)، والتي، على الرغم من ذلك، لا غنى عنها. وكنتيجة لنشاط النقابات، ينجح العمال في الحصول على جزء مستحق من الأجور وفقا لأوضاع سوق العمالة. وكنتيجة لنشاط النقابات، يتم تطبيق قانون الأجور الرأسمالي ويُشل تأثير الميل المحبط لنمو الاقتصاد، أو، لنكن أكثر دقة، يُضعَف" (٨).

عمل سيزيفيّ**!** هذه العبارة أغضبت النقابيين البيروقراطيين الألمان. لا يمكن لهم أن يعترفوا أن النضال النقابي، المفيد لحماية العمال من الميل الطبيعي للرأسمالية وللحد من تأثيرها تدريجيا، ليس بديلا لتحرير الطبقة العاملة.

بالنسبة لبرنشتاين، تشكل النقابات والتعاونيات الرافعة الاقتصادية الرئيسية لتحقيق الاشتراكية، أما الديمقراطية البرلمانية فتشكل الذراع السياسية لهذا التحول. وبحسب رأيه، يجسّد البرلمان إرادة المجتمع، وبعبارة أخرى، مؤسسة فوق الطبقات.

روزا لوكسمبورغ اعتبرت أن: "... الدولة الحالية ليست "المجتمع" الذي يمثل "الطبقة العاملة". فهي نفسها تمثل المجتمع الرأسمالي. إنها دولة طبقية" (٩). "البرلمانية ليست عنصرا اشتراكيا يتسرب تدريجيا ليشمل مجمل المجتمع الرأسمالي. إنها، على العكس من ذلك، شكلا محددا من الدولة الطبقية البرجوازية" (١٠).

في ذلك الوقت كان الخلاف حول الطريق البرلماني إلى الاشتراكية في ذروته في ألمانيا، حيث اعتقدوا أنه يمكن الاستيلاء على السلطة السياسية عبر الوصول إلى البرلمان وهذا الأمر تحقق للمرة الأولى مع الاشتراكيين الفرنسيين. ففي حزيران ١٨٩٩ دخل ألكسندر ميليران في حكومة والديك-روسو الراديكالية، وجلس إلى جانب الجنرال غاليفيت، المجرم الذي قضى على كومونة باريس. هذا الإجراء كان قد أعلن عنه الزعيم الاشتراكي الفرنسي جوريس والجناح اليميني الإصلاحي باعتباره نقطة تحوّل تكتيكية: السلطة السياسية لن تترك بعد اليوم للبرجوازية لوحدها، ولكن ستدار بشكل مشترك بين البرجوازية والطبقة العاملة، وبحسب رأيه، كان ذلك تعبيرا سياسيا للانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية.

تابعت روزا باهتمام هذه التجربة الأولى لتحالف حكومي بين الأحزاب الرأسمالية والاشتراكية، وأجرت تحقيقا شاملا للغاية حولها. وأشارت إلى أن هذا التحالف، بربطه أيدي وأرجل الطبقة العاملة

بالحكومة يمنع العمال من إظهار قوتهم الحقيقية. في واقع الأمر، كان ذلك مفيدا وعمليا للانتهازيين أو من يسمون بـ"المعارضة المتصحرة": "... بعيدا عن تقديم إصلاحات تقدمية حقيقية وفورية وملموسة، فإن اعتماد سياسة معارضة هو الطريق الوحيد الذي يمكّن الأحزاب الصغيرة بشكل عام والأحزاب الاشتراكية الصغيرة بشكل من الحصول على نجاحات عملية" (١١). الحزب الاشتراكي يجب أن يتخذ هذه المواقف لتعزيز النضال المناهض للرأسمالية:

"بطبيعة الحال، من أجل أن تكون فعّالة، يجب على الاشتراكية الديمقراطية أن تستولي على جميع المناصب في الدولة الحالية وتسيطر عليها. وإن الشرط الأساسي لتحقيق ذلك هو خوض الصراع الطبقي، وخوض الصراع ضد البرجوازية ودولتها" (١٢).

وختمت قائلة: "في المجتمع البرجوازي دور الاشتراكية الديمقراطية هو أن تكون ضمن الأحزاب المعارضة. لأن الحزب لن يتقدم إلا على أنقاض الدولة البرجوازية" (١٣).

وأشارت إلى أن الخطر الأخير الكامن في تجربة هذا التحالف يتمثل بـ: "جوريس المدافع الدؤوب، والممهد لعودة القيصرية. يبدو كأنه مزحة غليظة، ولكن مسار التاريخ مليء بهذا النوع من المزاح" (١٤).

كم يبدو هذا الكلام كلاما نبويا! الإخفاق الذريع لماكدونالد في بريطانيا، واستبدال جمهورية فايمار بهتلر، وإفلاس الجبهة الشعبية خلال الثلاثينات والحكومات الائتلافية في فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية، أوصلنا إلى حقبة ديغول، كل ذلك هو ثمار سياسة الحكومة الائتلافية.

بالنسبة إلى الإصلاحيين، الذين يعتقدون أن البرلمانية والشرعية البرجوازية تعني نهاية العنف كعامل في التطور التاريخي، ترد روزا:

"في الواقع ما هي الوظيفة الكاملة للشرعية البرجوازية؟ إذا خطف "مواطن حر" على يد شخص آخر خلافا لإرادته لفترة من الوقت، فإن الجميع يدرك على الفور أن عملا من أعمال العنف قد ارتكب. ومع ذلك، فإن العملية قد تُحَلّ من خلال كتاب نسميه قانون العقوبات، والمجرم سيوضع في السجن، ومن ثم تُحَلّ المسألة وتَحِلّ العدالة. وإذا قتل أحدهم أخيه الإنسان، فمن الواضح أن ذلك يشكل عملا من أعمال العنف. ومع ذلك، إذا كان ذلك يقع ضمن أعمال "الخدمة العسكرية"، فيتم اعتبار الجريمة أمرا قانونيا ونظاميا. وإذا حُرِم أحد المواطنين من جزء من أملاكه أو من أرباحه، من الواضح هنا أن عملا عنفيا قد ارتكب، ولكن على الفور يسمى ذلك "ضريبة غير مباشرة"، ثم يصبح كل شيء على ما يرام.

وبعبارة أخرى، ما يطرح نفسه هنا تحت عباءة الشرعية البرجوازية التي ليست سوى تعبيرا عن عنف يصبح معيارا يتلازم مع الطبقة الحاكمة. وعندما يحدث العنف الذي يرتكبه الفرد فإن قاعدة إلزامية معكوسة تحصل داخل ذهن المحامي البرجوازي (وداخل عقول الاشتراكيين الانتهازيين) ولا

يُنظَر إليها في حقيقتها، ولكن رأسا على عقب: فالمسار القانوني يتم إظهاره كعملية مجردة تحقق "العدالة"، ويظهر إكراه الدولة كنتيجة لذلك، على اعتبار أن القانون "يعاقب" على ذلك. في الواقع، الحقيقة هي عكس ذلك تماما: الشرعية البرجوازية (البرلمانية كعملية تشريعية في طور النمو) ليست سوى شكلا اجتماعيا معينا يعبر عن نفسه عبر العنف السياسي الذي تمارسه البرجوازية، وينمو على أساس اقتصادي" (١٥).

ومن هنا جاءت الفكرة السخيفة التي تقول إن إلغاء الرأسمالية عبر الأشكال القانونية التي وضعتها الرأسمالية نفسها، والتي، في العمق، ليست سوى تعبيرا عن العنف البرجوازي. في التحليل الأخير، للإطاحة بالرأسمالية، يصبح العنف الثوري أمرا ضروريا:

"إن استخدام العنف يبقى دائما السلاح الأخير للطبقة العاملة، القانون الأسمى للصراع الطبقي، والحاضر دائما، وأحيانا كامنا، وفي بعض الأحيان يتخذ أشكالا نشطة. وعندما نحاول إحداث ثورة في العقول من نوع ممارسة النشاط البرلماني وغيره من الأشكال، فإن ذلك ليس بهدف تحريك العقول فقط إنما أيضا الأيادي" (١٦).

كم يبدو هذا الكلام نبويا اليوم! فبعد زوال جمهورية فايمار التي استولى النازيون، ينبغي التذكير بما كتبته روزا لوكسمبورغ عام ١٩٠٢: "إذا كانت الاشتراكية الديمقراطية تدعو إلى قبول وجهة نظر انتهازية، وإلى نبذ استخدام العنف، وتناشد الطبقة العاملة لعدم التعرض للشرعية البرجوازية، عندذاك سينهار كامل نشاطها البرلماني عاجلا أم آجلا وسيحل مكانها عنفا رجعيا غير مقيّد" (١٧).

ولكن على الرغم من أن روزا لوكسمبورغ تعلم أن العمال اضطروا للجوء إلى العنف الثوري ضد الاستغلال والقمع، فإنها عانت بشدة وتألّمت من كل قطرة دم سفكت، فكتبت خلال الثورة الألمانية:

"أنهار الدم المتدفقة خلال ٤ سنوات من تقاتل الأمم الإمبريالية [الحرب العالمية الأولى]. اليوم يجب أن نحرص على الحفاظ على كل قطرة من هذا السائل الثمين بشرف وداخل أوعية من الكريستال. الطاقة الثورية غير المحدودة والشعور الإنساني الواسع- هما المتنفّس الحقيقي للاشتراكية. صحيح أن العالم انقلب، ولكن أي سيلان لدماء يمكن تجنبها هو تهمة، أي رجل يسارع لتنفيذ واجب مهم ويدوس على دودة من دون تفكير فإنه يرتكب جريمة" (١٨).

من بين الإصلاحيين وكذلك أولئك الذين يدعون أنهم ثوار النظرية السائدة يعتبرون أن الجوع وحده يقود العمال لسلوك مسار ثوري: يعتبر الإصلاحيون أنه على العمال الذين يتمتعون بظروف أفضل في أوروبا الغربية والوسطى أن يتعلّموا من تجربة العمال الروس الجياع والمضطهدين. في هذا الإطار قدمت نقطة متقدمة لتصحيح هذا المفهوم الخاطئ، حين كتبت عام ١٩٠٦:

"... فكرة أنه في ظل النظام القيصري قبل الثورة كان المستوى المعيشي للطبقة العاملة كان معدوما فيه الكثير من المبالغة. على العكس من ذلك طبقة العمال في الصناعات الكبيرة وداخل المدن الكبيرة

كانت أكثر فعالية ونشاطا في النضال الاقتصادي والسياسي وكانت تتمتع بمستوى معيشي أقل بقليل من الطبقة البروليتارية عينها في ألمانيا، حتى أن بعضهم كان ينال أجرا أعلى. كذلك، بالنسبة لعدد ساعات العمل فإن الفرق داخل المصانع الكبيرة بين ألمانيا وروسيا كان قليلا جدا. وبالتالي فإن المفهوم المخترَع الذي يعتبر أن الطبقة العاملة الروسية توفرت لديها الظروف المادية والثقافية ليس سوى تهويما فارغا. هذا المفهوم يتناقض مع واقع الثورة نفسها وعلى الدور البارز الذي لعبته البروليتاريا في ذلك. ثورات بهذا المستوى من النضج السياسي والروحي لم يصنعها الفقراء المعدمين، فعمال المصانع كانوا في طليعة النضال في بطرسبرغ، وفي وارسو، وموسكو، وأوديسا، وكانوا الأقرب ثقافيا وروحيا من عمال غرب أوروبا أكثر من قربهم من التصور المتخيّل لأولئك الذين يفكرون أن المدرسة الوحيدة للبروليتاريا هي البرلمانية البرجوازية والممارسات النقابية "الصحيحة" (١٩).

وبالمناسبة، ببطون خاوية، إلى جانب تشجيع التمرد، يقود كذلك إلى الخضوع.

مستندة على الصراع الطبقي للطبقة العاملة، سواء كان ذلك كامنا أم علنيا، سواء كانت يهدف إلى كسب تنازلات من الطبقة الرأسمالية أو عبر الإطاحة بها، دعمت روزا لوكسمبورغ النضال من أجل الإصلاحات الاجتماعية وكذلك من أجل الثورة الاشتراكية، وعلى اعتبار أن كل ما سبق يشكل مدرسة لذلك، فقد قدّمت تحليلا واضحا حول العلاقات المتبادلة بين هذين الأمرين:

"الإصلاح التشريعي والثورة ليسا أسلوبين مختلفين من التطور التاريخي التي يمكن التقاطها بتمتّع من عدّاد التاريخ، تماما كما يختار المرء بين مقانق ساخنة أو برادة. الإصلاح التشريعي والثورة عاملان مختلفان في تطور المجتمع الطبقي. ظروفهما وتكاملهما المتبادل، وهما في الوقت عينه حصريان بشكل متبادل، كما هو الحال مع القطبين الشمالي والجنوبي، بالبرجوازية والبروليتاريا.

وعلى العكس من التاريخ الذي يصوّر العمل من أجل الإصلاحات كثورة طال أمدها والثورة كسلسلة مكثفة من الإصلاحات. التحول الاجتماعي والإصلاح التشريعي لا يختلفان وفقا لمدتهما ولكن وفقا لمحتواهما. سر التغيير التاريخي عبر استخدام السلطة السياسية يكمن في تحويل التعديلات الكمية البسيطة إلى نوعية جديدة، أو للكلام بتحديد أكثر، عبر الانتقال خلال فترة تاريخية من شكل معين لمجتمع إلى شكل آخر.

هذا السبب يجعل الناس الذين يضعون الاصلاح التشريعي في مكان متناقض مع الاستيلاء على السلطة السياسية والوصول لاحقا إلى الثورة الاشتراكية لا يختارون في الواقع طريقا هادئا وأبطأ للوصول إلى الهدف نفسه، ولكن لكي يصلوا إلى هدف آخر. وبدلا من السعي للوصول إلى مجتمع جديد فإنهم يتخذون موقفا يرمي إلى إجراء تعديلات سطحية على المجتمع القديم. وإذا تتبعنا المفاهيم السياسية التحريفية، فسنصل إلى نفس النتيجة التي تصل إليها عندما نتتبع النظريات الاقتصادية للتحريفية. برنامجنا ليس تحقيق الاشتراكية، ولكن إصلاح الرأسمالية، لا نهدف إلى القضاء على

نظام العمل المأجور، ولكن التقليل من الاستغلال، هذا كل شيء، قمع التجاوزات الرأسمالية بدلا من القضاء على الرأسمالية نفسها” (٢٠).

—

الهوامش:

١. R. Luxemburg, Reform or Revolution (Bombay, 1951), pp.14-15.

٢. R. Luxemburg, Reform, p.15.

٣. R. Luxemburg, Reform, p.16.

٤. R. Luxemburg, Reform, p.7.

٥. Vorwдrts, 26 March 1899.

٦. R. Luxemburg, Reform, p.52

٧. The mythological king of Corinth who in the lower world was condemned to roll to the top of a hill a huge stone, which constantly rolled back again, making his task never ending.

٨. R. Luxemburg, Reform, pp.50-5l.

٩. R. Luxemburg, Reform, p.22

١٠. R. Luxemburg, Reform, pp.29-30

١١. P. Frцlich, Rosa Luxemburg: Her Life and Work (London, 1940), p.84

١٢. R. Luxemburg, Ausgewдhlte Reden und Schriften (Berlin, 1955), vol.II, p.61

١٣. R. Luxemburg, Ausgewдhlte, vol II, p.64

١٤. P. Frцlich, Rosa Luxemburg, p.84

١٥. R. Luxemburg, Gesammelte Werke (Berlin), vol.III, pp.361-362

R. Luxemburg, Gesammelte, vol.III, p.366 .١٦

R. Luxemburg, Gesammelte, vol.III, p.366 .١٧

Rote Fahne, 18 November 1918 .١٨

R. Luxemburg, Ausgewдhlte, vol.I, pp.211-212 .١٩

R. Luxemburg, Reform, pp.58-59 .٢٠

الإضراب الجماهيري والثورة

في أيار عام ١٨٩١ أضرب ١٢٥ ألف عامل بلجيكي مطالبين بتغييرات في النظام الانتخابي. في نيسان ١٨٩٣ نفذ إضراب آخر، وشمل حوالي ربع مليون عامل، وذلك للهدف نفسه. والنتيجة كانت عالمية، ولكن غير عادلة، والمزيد من الامتيازات، فأصوات الأغنياء و"المثقفين" تُعَدّ مرتين أو ثلاثة مرات أصوات العمال والفلاحين. العمال، غير الراضين، خرجوا بعد ذلك بتسع سنوات وطالبوا بتعديل كامل للدستور. هذه الإضرابات تركت انطباعا كبيرا عند روزا لوكسمبورغ. فكرست مقالين لهذا الموضوع- التجربة البلجيكية (١)، ومرة أخرى عن التجربة البلجيكية(٢)- بحيث أشارت إلى الطبيعة الثورية للإضراب السياسي كسلاح محدد بيد الطبقة العاملة. بالنسبة إلى روزا لوكسمبورغ الإضراب العام، السياسي والاقتصادي، يشكل مسألة محورية من ضمن النضال الثوري من أجل تحقيق سلطة العمال.

حماس روزا لوكسمبورغ لهذه الوسيلة وفهمها العميق لها بلغ مستوى أعلى خلال الثورة الروسية عام ١٩٠٥:

"في الثورات البرجوازية السابقة، كان هناك من جهة التثقيف السياسي وقيادة الجماهير الثائرة، ومن جهة أخرى المهمة الثورية اقتصرت على إسقاط الحكومة، والمعركة القصيرة التي حصلت على المتاريس صاحبت النضال الثوري. اليوم، وفي وقت أصبحت فيه الطبقة العاملة أكثر تعلما، تنظم وتقود بنفسها الصراع في سياق النضال الثوري، عندما تتجه الثورة ليس فقط ضد النظام إنما أيضا ضد الاستغلال الرأسمالي، يظهر الإضراب العام كوسيلة طبيعية لتحشيد أوسع قدر ممكن من الطبقة البروليتارية نحو الفعل، ولتثويرها ولتنظيمها. كذلك هي طريقة لتقويض وإسقاط سلطة الدولة وكذلك الحد من الاستغلال الرأسمالي... وبهدف تحقيق مشاركة واسعة من الطبقة العاملة في أي حراك سياسي مباشر، ينبغي بداية أن تنظم هذه الطبقة نفسها، والتي تعني قبل كل شيء إزالة الحواجز بين المصانع والحرف، بين المناجم والمسابك، ويجب عليها التغلب على الانقسامات داخل المصانع حيث نير الرأسمالية يزيد منها. كما أن الإضراب العام هو الشكل الأولي الطبيعي العفوي لكل فعل بروليتاري ثوري. وكلما أصبح القطاع الصناعي ركيزة الاقتصاد، كلما برز الدور الأساسي للطبقة العاملة، وبالتالي تزيد الصراعات بين العمال والرأسمال، وتصبح بذلك الإَضرابات العامة أكثر حسما وقوة. الشكل الأولي للثورات البرجوازية، يأخذ شكل المعارك على المتاريس، والمعركة المفتوحة مع جيش النظام، هي معركة ذات طابع هامشي في الثورة اليوم، وهي تشكل لحظة معينة ضمن مجمل السيرورة التي تخوضها جماهير البروليتاريا المناضلة"(٣).

وعلى العكس من كل الإصلاحيين الذين يرون جدارا فاصلا بين النضالات الجزئية بهدف الإصلاح الاقتصادي وبين النضال السياسي من أجل الثورة، روزا لوكسمبورغ أوضحت أنه خلال الحقبة الثورية ينمي النضال الاقتصادي النضال السياسي والعكس صحيح:

“الحركة لا تتجه باتجاه واحد فقط، من الاقتصادي إلى السياسي، لكن ذلك يحصل أيضا بالاتجاه المعاكس. كل حراك سياسي جماهيري، عندما يصل إلى قمته، ينتج مجموعة من الإضرابات العامة الاقتصادية. وهذا لا يقود إلى مشاركة فردية ضمن إضراب عام إنما يقود إلى ثورة بشكل عام. مع انتشار وتوضيح وتكثيف النضال السياسي لا يعني أن النضال الاقتصادي سينحسر إنما على العكس فإنه سيتمدد ويصبح أكثر انتشارا وتكثيفا. هناك انعكاس متبادل بين النضالين. كل هجوم ونصر طازج لنضال سياسي سيكون له أثرا قويا على النضال الاقتصادي، وفي الوقت عينه يوسع إمكانية نضال العمل بهدف تحسين أوضاعهم ويقوي لديهم الدافع للقيام بذلك وبالتالي يعزز لديهم الروح المكافحة. وبعد مد مرتفع من النضال السياسي سيكون هناك رواسب خصبة التي تُنبِت ألف نضال اقتصادي. والعكس صحيح. النضال الاقتصادي المستمر ضد الرأسمال يدعمهم خلال توقف المعركة السياسية. النضال الاقتصادي يشكل، إذا جاز التعبير، الخزان المستمر لقوة الطبقة العاملة حيث يستمد النضال السياسي منه قوة دافعة جديدة. الصراع الاقتصادي الدؤوب يؤدي في كل لحظة إلى نشوب صراعات معزولة وحادة لا تلبث إلا أن تسبب انفجارا سياسيا غير متوقع على نطاق واسع.

بكلمة واحدة، النضال الاقتصادي هو العامل الذي يدفع الحركة من نقطة سياسية محورية إلى نقطة أخرى. النضال السياسي يخصّب الأرض أمام النضال الاقتصادي. ويحصل تأثير متبادل كل ثانية. هكذا نجد هذين العنصرين، السياسي والاقتصادي لا ينفصلان عن بعضهما البعض خلال فترة الإضرابات الجماهيرية في روسيا، ولم يلغيا بعضهما البعض، كما رأى بعض المتحذلقين”. (٤)

الذروة المنطقية والضرورية للإضراب العام هي “تحقيق انتفاضة يمكن الوصول إليها عن طريق سلسلة من الانتفاضات الجزئية التي تعد أرض الواقع، التي يمكن أن تكون معرضة “للهزيمة” أو للقضاء عليها، وقد تظهر كل انتفاضة [جزئية] بأنها “سابقة لأوانها”” (٥).

وما يزيد من نتائج الوعي الطبقي خلال الإضرابات العامة:

“الأمر الأكثر أهمية، لأنه الأكثر ديمومة، عندما تنحسر وتتدفق الموجة الثورية، هو نمو الروح البروليتارية. التقدم الفكري للبروليتاريا يوفر ضمانة متينة للتقدم خلال النضالات الاقتصادية والسياسية التي لا مفر منها في المستقبل” (٦).

وما المثالية العمالية تدفعهم إلى الانتفاض! لأنهم يضعون جانبا الأفكار حول إذا كان لديهم ما يلزم لإعالة أنفسهم وأسرهم خلال الصراع. لا يسألون ولا يطلبون أي مساعدة تقنية أولية التي يصنعونها:

“مرة واحدة في فترة جدية من بدء الإضرابات العامة، كل “كلفة العمليات” تصبح شبيهة بقياس المحيط بواسطة دلو. وإنه محيط، وبحر من المتاعب الرهيبة والحرمان الذي تعاني منه البروليتاريا- التي هي تكلفة ثابتة في كل ثورة. الحل الذي يأتي مع الحقبة الثورية هو ظاهريا مشكلة غير قابلة

للحل بما يتعلق الحرمان من المساعدة المادية للمضربين، هذا الأمر هو توليد لمثالية هائلة التي يبدو أنها أصبحت بمأمن من حرمان أفظع” (٧).

ما سبق هو لمحة من المبادرة الثورية الرائعة والتضحية الذاتية التي تدفع إلى انتفاضة العمال خلال ثورة وبالتالي بررت إيمان روزا.

—

الهوامش:

١. Die Neue Zeit, 26 April 1902.

٢. Die Neue Zeit, 14 May 1902.

٣. R. Luxemburg, Ausgewдhlte, vol.I, pp.227-228.

٤. R. Luxemburg, Ausgewдhlte, vol.I, pp.201-202.

٥. R. Luxemburg, Ausgewдhlte, vol.I, p.274.

٦. R. Luxemburg, Ausgewдhlte, vol.I, p.187.

٧. R. Luxemburg, Gesammelte, vol.III, p.457.

النضال ضد الإمبريالية والحرب

خلال العقدين اللذين سبقا اندلاع الحرب العالمية الأولى نما دعم الإمبريالية داخل الأممية الاشتراكية.

وأظهر مؤتمر هذه الأممية المنعقد في مدينة شتوتغارت عام ١٩٠٧ هذه الحقيقة بوضوح. فطرحت مسألة الاستعمار على جدول الأعمال لأن صراع القوى الامبريالية في أفريقيا وآسيا قد بات شرساً. ولم تتحدث الأحزاب الاشتراكية في الواقع ضد طمع حكوماتها، ولكن النقاش في مؤتمر شتوتغارت أظهر موقفاً مناهضا للاستعمار بعيد كل البعد عن موقف العديد من قادة هذه الأممية. وقد عين المؤتمر لجنة الاستعمار، التي صاغت مسودة تقرير تفيد أن الاستعمار له بعض الجوانب الإيجابية. وقد ورد في المسودة: "أن المؤتمر لا يرفض من حيث المبدأ وفي جميع الأوقات السياسة الاستعمارية". ويجب على الاشتراكيين إدانة تجاوزات الاستعمار، ولكن دون التخلي عنه. إذ يجب علينا [بحسب المسودة]:

"الدعوة إلى إصلاحات، لتحسين حياة مواطني المستعمرات... ولتثقيفهم من أجل الاستقلال بكل الوسائل الممكنة.

لهذا السبب ينبغي لممثلي الأحزاب الاشتراكية أن يقترحوا على الحكومات إبرام معاهدة دولية، لوضع قانون للمستعمرات، الذي من شأنه حماية حقوق المواطنين وأن تضمن تطبيقه كل الدول الموقعة على المعاهدة".

ولكن مشروع القرار سقط ولكن بأغلبية ضئيلة إلى حد ما- ١٢٧ صوت مقابل ١٠٨. وهذا ما يظهر انحياز نصف المشاركين في المؤتمر إلى جانب الإمبريالية.

وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى، والتي هي في أساسها صراع بين القوى الإمبريالية لتقسيم المستعمرات، عام ١٩١٤، لم يأتِ من فراغ دعم غالبية قادة الأممية الاشتراكية لهذه الحرب.

خلال مؤتمر شتوتغارت كانت روزا لوكسمبورغ الأكثر وضوحا في مناهضتها للإمبريالية، واقترحت مشروع قرار يحدد السياسات اللازمة لمواجهة التهديد بالحرب الإمبريالية:

"في حالة وجود خطر اندلاع حرب من واجب العمال وممثليهم في البرلمان في الدول المشاركة في الحرب بذل كل جهد ممكن لدرء اندلاع الحرب عن طريق اتخاذ تدابير مناسبة، والتي يمكن لها بالطبع تغيير أو تكثيف تجذر الصراع الطبقي ومجمل الوضع السياسي.

وفي حال اندلاع الحرب رغما عن ذلك، من واجبهم اتخاذ التدابير لتصل إلى نهايتها بأسرع وقت ممكن، وأن يستفيدوا من الأزمة الاقتصادية والسياسية التي تحدثها الحرب لكي يثيروا الجماهير ويسرعوا في إسقاط الطبقة الرأسمالية الحاكمة".

هذا الاقتراح من الواضح أنه يشير إلى أن على الاشتراكيين مناهضة الإمبريالية والحرب، وأن السبيل الوحيد لوضع حد لذلك هو من خلال إسقاط الرأسمالية، لأنهما ثمرة هذه الأخيرة.

وقد مر هذا الاقتراح، ولكن مع ذلك فقد أصبح الأمر واضحا أكثر فأكثر، أن القادة الذين لم يدعموا علنيا الاستعمار، الكثير منهم لم يفكر بضرورة الكفاح ضد الإمبريالية بطريقة ثورية.

تبنى هؤلاء القادة، وكان كاوتسكي المتحدث الرئيسي، رأي مفاده أن الإمبريالية ليست بالضرورة ناتجة عن الرأسمالية، إنما هي خرّاجاً حيث ترغب كل الطبقة الرأسمالية التخلص منه. نظرية كاوتسكي كانت تشير إلى أن الإمبريالية كانت طريقة توسّع مدعومة من بعض المجموعات الرأسمالية الصغيرة ولكن النافذة (البنوك وملوك الأسلحة)، وهذا ما يتناقض مع متطلبات الطبقة الرأسمالية بمجملها، لأن الإنفاق على التسلح من شأنه تخفيض الأموال المستثمرة داخل البلاد وخارجها، وبالتالي سيؤثر على مصالح غالبية الطبقة الرأسمالية بحيث تزداد تدريجياً معارضتها للسياسة الإمبريالية التوسعية المسلحة. برنشتاين كرر نفس الأفكار، في وقت متأخر، عام ١٩١١، حيث جادل بثقة أن الرغبة بالسلام أصبحت عالمية، وأنه من غير الوارد اندلاع الحرب. والسباق على التسلح، بحسب "مركزية ماركس" الكاوتسكية، كانت حالة شاذة يمكن التغلب عليها من خلال عقد اتفاقات نزع السلاح، وعبر محاكم التحكيم الدولية، واتفاقيات السلام، وكما عبر إنشاء الولايات المتحدة الأوروبية. باختصار، "المركزية الماركسية" هذه تعتمد على القوى الإمبريالية لإحلال السلام على الأرض.

روزا لوكسمبورغ مزقت ببراعة هذه الحجج السلمية الرأسمالية:

"الاعتقاد بأن الرأسمالية هي ممكنة دون توسّع، هي صيغة نظرية لميلٍ تكتيكيٍّ محدد. هذا المفهوم يميل إلى الاعتقاد أن مرحلة الإمبريالية ليست ضرورة تاريخية، وليست المرحلة الفاصلة بين الرأسمالية والاشتراكية، إنما هي اختراع خبيث لأطراف ذات مصلحة. وهو يحاول إقناع البرجوازية بأن الإمبريالية والنزعة العسكرية ستضر بمصالح البرجوازية، وعلى أمل أن يُعزَل من له مصلحة بالحرب وذلك بتشكيل حلف بين البروليتاريا والغالبية العظمى من البرجوازية بهدف "كبح" جماح الإمبريالية، وهم يتلهفون لـ"نزع سلاح جزئي"، و"الحد من لسعته". كما لو أن البرجوازية الليبرالية هي في مرحلة أفول وتطلب المساعدة من الملوك "الجاهلين" من أجل الملوك "المستنيرين"، اليوم "المركز الماركسي" يقترح من البرجوازيين "غير العقلانيين" تقديم العون للبرجوازيين "العقلانيين" بهدف ثنيهم عن ممارسة السياسة الإمبريالية مع كل نتائجها الكارثية على المعاهدات الدولية لنزع السلاح، وعن الصراع المسلح من أجل الهيمنة على العالم، وصولا إلى الطلب منهم تشكيل فيدرالية الدول الديمقراطية. التسوية بين البروليتاريا والرأسمالية، وحل التناقض الكبير بينهما، ينحو إلى حل وسط مثالي "من أجل التخفيف من آثار الإمبريالية بين الدول الرأسمالية"". (١)

كم كانت هذه الكلمات مناسبة ليس فقط بالنسبة لبرجوازية كاوتسكي وبرنشتاين المسالمة، ولكن لكل من انضم إلى عصبة الأمم، ومنظمة الأمم المتحدة، وكل من بحث عن "الأمن الجماعي" خلال القِمم الرئاسية!

وأظهرت روزا لوكسمبورغ أن الإمبريالية والحرب الإمبريالية لا يمكن التغلب عليها في ظل الرأسمالية، لأنها تنبثق من المصالح الحيوية للمجتمع الرأسمالي.

وتشير المبادئ العامة لعصبة سبارتاكوس التي وضعتها روزا لوكسمبورغ إلى التالي:

"الإمبريالية، هي المرحلة الأخيرة والنمو الأعلى للسيطرة السياسية للرأسمالية، وهي العدو القاتل للعمال من كل البلدان... النضال ضد الإمبريالية هو في الوقت عينه كفاح البروليتاريا للوصول إلى السلطة السياسية، وهو الصراع الحاسم بين الرأسمالية والاشتراكية. الهدف النهائي للاشتراكية لا يمكن تحقيقه إلا إذا حاربت البروليتاريا العالمية بلا هوادة ضد الإمبريالية ككل، وعليها أن يكون شعارها "الحرب ضد الحرب" كدليل عملي للعمل، وأن تجمع كل قواها وجميع قدراتها للتضحية بذاتها في هذه المواجهة". (٢)

كذلك، كان الموضوع الرئيسي لسياسة روزا لوكسمبورغ المناهضة للإمبريالية يقوم على أن الكفاح ضد الحرب هو جزء لا يتجزأ من النضال من أجل الاشتراكية.

وبشغف كبير ختمت روزا لوكسمبورغ أهم كتيب لها مناهض للحرب "أزمة الاشتراكية الديمقراطية" بالتالي:

"الوحشية الإمبريالية تدمر أوروبا، يرافقها عرضيا "العالم المثقف" الفاقد لقلبه وعقله- وتذبح البروليتاريا الأوروبية... ويكمن أملنا، ولحمنا ودمنا، الذي يتساقط كالذرة تحت ضربات المنجل. الخيرة بيننا، والأكثر ذكاء، والأكثر تدريبا بيننا من الاشتراكية الأممية، وحاملو التقاليد البطولية لحراك الطبقة العاملة الحديثة، وتقدميو البروليتاريا العالمية، وعمال بريطانيا وفرنسا وألمانيا وروسيا يتعرضون لمجازر جماعية. إنها جريمة عظمى أكبر بكثير من تدمير مدينة لوفين [مدينة بلجيكية دمرها الجيش الألماني عام ١٩١٤] وأكبر من تدمير كاتدرائية ريمس [كاتدرائية في شمال فرنسا دمرها الألمان عام ١٩١٤]. إنها ضربة مميتة ضد القوة التي يختزنها مستقبل البشرية، القوة الوحيدة التي يمكنها أن تنقذ قيم الماضي وتطورها نحو مجتمع بشري أحدث وأفضل. الرأسمالية كشفت ميزاتها الحقيقية، لقد كشفت للعالم أنها فقدت مبرراتها التاريخية وأن استمرارها لم يعد ممكنا له أن يؤمن تقدم البشرية...

ألمانيا، ألمانيا، عاشت الديمقراطية! عاش القيصر! ١٠ آلاف بطانية بأحسن أحوالها! مئة ألف كيلوغرام من لحم الخنزير المقدد، والبن- سلموها فورا! فلتزداد الأرباح ولتسقط البروليتاريا. مع كل

مناضل يسقط من أجل المستقبل، مع كل جندي من الثورة، وكل محرر للإنسانية من نير الرأسمالية، نجد قبرا مجهول الاسم.

سيتوقف الجنون وصناعة الجحيم فقط عندما يستيقظ عمال ألمانيا وفرنسا وبريطانيا وروسيا من هيجانهم، وعندما يمدون يد الصداقة إلى بعضهم البعض، ويسقطون جوقة الضباع الإمبريالية المتوحشة صارخين ذلك الهتاف المدوي للحركة العمالية الحديثة: "يا عمال العالم اتحدوا!"" (٣)

بنظرة ثاقبة أضافت روزا لوكسمبورغ:

"المجتمع البرجوازي يواجه معضلة، إما التحول إلى الاشتراكية، أو العودة إلى الهمجية... نحن نواجه خيارا: أو انتصار الإمبريالية وتراجع كل الثقافة- كما كان الحال في روما القديمة- نحو الإبادة والتدمير والانحطاط- نحو مقبرة رتيبة، أو انتصار الاشتراكية- انتصار الطبقة العاملة الأممية الواعية على الإمبريالية المتوحشة وأداتها: الحرب. هذه هي معضلة تاريخ العالم، أو أن سيف الطبقة العاملة الواعية يكون قد سبق عذله". (٤)

نحن الذين نعيش في ظل القنبلة الهيدروجينية...

—

الهوامش:

(1). R. Luxemburg, Gesammelte, vol.III, p.481.

(2). Dokumente und Materialien zur Geschichte der Deutschen Arbeiterbewegung (Berlin, 1957), vol.I, pp.280-281.

(3). R. Luxemburg, Ausgewählte, vol.I, pp.391-394.

(4). R. Luxemburg, Ausgewählte, vol.I, p.270.

الحزب والطبقة

اتُهمت روزا لوكسمبورغ بالمادية الميكانيكية، التي هي مفهوم للتطور التاريخي تكون فيه القوى الاقتصادية الموضوعية مستقلة عن إرادة الإنسان. هذا الاتهام لا أساس له على الإطلاق. عمليا لم يعتبر أي من الماركسيين العظماء أن النشاط الإنساني هو المحدد لمصير الإنسان. لوكسمبورغ كتبت:

"الرجال لا يصنعون التاريخ بإرادتهم المحضة، لكنهم يصنعون تاريخهم الخاص. البروليتاريا تعتمد في عملها على درجة معينة من النضج في التطور الاجتماعي القائم في وقت محدد، ولكن التطور الاجتماعي لا يحصل بشكل مستقل وبعيدا عن البروليتاريا، والأخيرة بقدر ما هي مسببته ومحركته هي أيضا من منتجاته ونتائجه. عمل البروليتاريا هو العامل الحاسم في التاريخ، وعلى الرغم من أننا لا يمكن القفز فوق مراحل التطور التاريخي أكثر من رجل يقفز فوق ظله، يمكننا تسريع أو تأخير هذا التطور. إن انتصار البروليتاريا الاشتراكية سيكون نتيجة للقوانين التاريخية الصلبة، وسيعتمد ذلك على آلاف الخطوات السابقة، الشاقة والبطيئة جدا. ومع ذلك، لن نحقق ذلك ما لم تجمع السيرورة التاريخية الناضجة الظروف المادية إلى جانب الشرارة المتقدة لقوة وعي الجماهير الشعبية". (١)

متبعة خط التفكير الذي وضعه ماركس وانجلز، آمنت روزا لوكسمورغ أن الوعي هو من أهداف الاشتراكية لجانب عدد كبير من الجماهير العمالية هو شرط ضروري لتحقيق الاشتراكية. وينص البيان الشيوعي على:

"فحتى الآن كانت الحركات كلها إمّا حركات أقليات، وإما لمصلحة الأقليات. والحركة البروليتارية، هي الحركة القائمة بذاتها، للأغلبية الساحقة، في سبيل الأغلبية الساحقة. والبروليتاريا، الفئة الدنيا في المجتمع الراهن، لا يمكنها أن تنهض وتنتصب، بدون أن تنسف البنية الفوقية كلها للفئات التي تؤلف المجتمع الرسمي".

مرة أخرى كتب انجلز:

"لقد ولى زمن الهجمات المفاجئة، وزمن الثورات التي تقوم بها أقلية واعية ضئيلة تترأس الجماهير غير الواعية. وحيث يكون المقصود تحويل النظام الاجتماعي تحويلاً تاما، ينبغي على الجماهير بالذات أن تشترك في هذا، ينبغي عليها بالذات أن تدرك الهدف الذي يدور النضال من أجله، الهدف الذي تهرق دماءها وتضحي بحياتها من أجله." (٢)

روزا لوكسمبورغ كتبت في الإطار عينه: "من دون إرادة واعية ومن دون عمل واعٍ لأغلبية البروليتاريا فإن الاشتراكية لن تتحقق". (٣)

أيضا، ينص برنامج الحزب الشيوعي في ألمانيا (سبارتاكوس)، الذي صاغته روزا على ما يلي:

“١). عصبة سبارتاكوس ليست حزبا يرغب للوصول إلى السلطة سواء فوق الطبقة العاملة أو عبرها. عصبة سبارتاكوس هي مجرد جزء من الطبقة العاملة الأكثر اقتناعا بهدفها؛ هي جزء من كلٍ يوجه الحركة العمالية الواسعة لوظيفتها التاريخية في كل خطوة؛ وفي كل مرحلة من الثورة تمثل الهدف الاشتراكي النهائي وفي جميع المسائل الوطنية ومصالح الثورة البروليتارية العالمية.

٢). عصبة سبارتاكوس لن تتولى أبدا السلطة الحكومية إلا من خلال إرادة واضحة ولا لبس فيها للأغلبية الساحقة للطبقة العاملة الألمانية؛ وليس بأي وسيلة سوى من خلال موافقة واعية مع وجهات نظر وأهداف والتكتيكات النضالية لعصبة سبارتاكوس.

الثورة البروليتارية يمكن تحقيقها فقط من خلال خطوات واضحة وناضجة على الطريق الصعب من المعاناة والتجربة المريرة، من خلال الهزائم والانتصارات.

انتصار عصبة سبارتاكوس ليس في بداية الثورة إنما عند نهايتها؛ وهذا يتطابق مع انتصار الملايين من البروليتاريا الاشتراكية”. (٤)

في حين أن الطبقة العاملة كطبقة يجب أن تكون واعية لأهداف الاشتراكية وأساليب تحقيقها، فإنها لا تزال تحتاج إلى حزب ثوري لقيادتها. في كل مصنع وفي كل مرفأ وفي كل موقع بناء، هناك عمال أكثر تقدما- عمال أكثر خبرة في الصراع الطبقي، وأكثر استقلالا من تأثير الطبقة الرأسمالية- وهناك عمال أقل تقدما. الأمر متروك للأوائل أن يتنظموا في حزب ثوري، وأن يحاولوا التأثير وقيادة الأخيرين. وكما قالت روزا لوكسمبورغ: “تحتاج الحركة الجماهيرية للبروليتاريا إلى قيادة بواسطة قوة مبدئية منظمة”. (٥)

الحزب الثوري، الواعي لدوره القيادي، يجب أن يحذر من الانزلاق إلى طريقة تفكير أن الحزب هو ينبوع كل الأفكار والأفعال الصحيحة، في حين يرى الطبقة العاملة ككتلة خاملة غير مبادرة.

“وبطبيعة الحال من خلال تحليل نظري للأوضاع الاجتماعية للصراع، أدخلت الاشتراكية الديمقراطية عنصر الوعي في الصراع الطبقي للبروليتاريا إلى درجة لم يسبق لها مثيل؛ وأعطت النضال الطبقي وضوح الهدف؛ وأنشأت، لأول مرة، منظمة دائمة للجماهير العمالية، وبالتالي العمود الفقري للنضال الطبقي. ومع ذلك، سيكون خطأ كارثيا لنا إذا افترضنا أنه من الآن وصاعدا كل مبادرة تاريخية للشعب ستمر تحت أيدي المنظمة الاشتراكية الديمقراطية وحدها، وأن الجماهير غير المنظمة للبروليتاريا ستبقى على ما هي عليه في سكون التاريخ. على العكس من ذلك، تستمر الجماهير الشعبية بأن تكون المادة الحية من تاريخ العالم، حتى في ظل وجود الاشتراكية الديمقراطية؛ وفقط بمرور الدورة الدموية بين النواة المنظمة والجماهير الشعبية، وفقط عندما ينبض

الواحد يحيي الثاني، عندها يمكن للاشتراكية الديمقراطية أن تثبت أنها قادرة على أفعال تاريخية كبيرة". (٦)

الحزب، ونتيجة لذلك، لا ينبغي أن يخترع تكتيكات من الفراغ، ولكن أن يضع في صدارة واجباته أن يتعلم من تجربة الحركة الجماهيرية ومن ثم يعمم ذلك. وقد أظهرت الأحداث الكبرى في تاريخ الصراع الطبقي صحة هذا التشديد من دون أدنى شك. أقام عمال باريس عام ١٨٧١ شكلا جديدا للدولة- دولة بدون جيش ودون بيروقراطية، حيث يتلقى كل الموظفين متوسط أجر العامل وكان يمكن استرجاعه، قبل أن يبدأ ماركس باستقراء طبيعة وبنية الدولة العمالية. أيضا أقام عمال بتروغراد، عام ١٩٠٥، سوفيتا (مجلسا عماليا) بشكل مستقل عن الحزب البلشفي، في الواقع بشكل معارض للقيادة البلشفية المحلية وفي مواجهة، على الأقل، الشك، إن لم يكن العداء، وفي جزء منه من جانب لينين نفسه. لذلك لا يمكن إلا أن يتوافق المرء مع روزا لوكسمبورغ عندما كتبت عام ١٩٠٤:

"الخصائص الرئيسية لتكتيكات نضال الاشتراكية الديمقراطية لم يتم "اختراعها"، ولكنها هي نتيجة لسلسلة مستمرة من الأفعال الإبداعية الكبيرة للصراع الطبقي الأساسي. هنا أيضا اللاوعي يسبق الوعي، فمنطق السيرورة التاريخية الموضوعية يأتي قبل المنطق الذاتي لحامله". (٧)

ولا يتعلم العمال بواسطة قادة الحزب. وكما تصدت روزا لوكسمبورغ لكاوتسكي وصحبه:

"يظنون أنهم لتعليم الجماهير البروليتارية الروح الاشتراكية فإن ذلك يعني التالي: إلقاء محاضرات عليهم، توزيع الكتيبات والنشرات عليهم. ولكن لا! [بحق الجحيم] المدرسة البروليتارية الاشتراكية لا تحتاج إلى كل هذا. النضال نفسه يعلم الجماهير". (٨)

أخيرا، وصلت روزا لوكسمبورغ إلى هذا الاستنتاج: "الأخطاء التي ارتكبتها الحركة العمالية الثورية الحقيقية هي مثمرة وجديرة بالاهتمام أكثر بكثير من عصمة أفضل لجنة مركزية". (٩)

بارتكازها بمثل هذا التأكيد (وعن حق) على الطاقة الابداعية للطبقة العاملة، قللت روزا لوكسمبورغ من شأن الاثباط والأضرار التي قد تلحقها منظمة محافظة على النضال الجماهيري. لقد أعربت عن إيمانها بأن تفجر الجماهير سيلقي جانبا بمثل هذه القيادة من دون أن يلحق بالحركة الجماهيرية نفسها أي أذى. وكتبت عام ١٩٠٦:

"إذا كانت تمر ألمانيا، في أي وقت وتحت أي ظرف من الظروف، بتجربة الصراعات السياسية الكبرى، فإن حقبة الصراعات الاقتصادية الهائلة ستندلع في نفس الوقت. الأحداث لن تتوقف للحظة واحدة حتى تطلب مباركة أحد القادة النقابيين للحركة الجماهيرية. إذا وقفوا جانبا أو عارضوها، نتيجة هذا السلوك سيكون التالي: القائد النقابي أو الحزبي ستجرفه موجة الأحداث، والنضالات الاقتصادية والسياسية من الممكن خوضها كنتيجة من دونهم". (١٠)

هذا الموضوع روزا لوكسمبورغ أعادت التأكيد عليه مرارا وتكرارا.

لفهم الأسباب المحتملة لتقليل روزا لوكسمبورغ لدور المنظمة والمبالغة في تقدير دور العفوية، لا بد من إلقاء نظرة على الوضع التي كانت تعمل فيه. أولا، كان عليها محاربة القيادة الانتهازية للحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني. هذه القيادة شددت على أهمية التنظيم بما لا يفوق الوصف، وقللت من اهتمامها بعفوية الجماهير. حتى عندما وافقت على إمكانية الإضراب الجماهيري، على سبيل المثال، استندت القيادة الإصلاحية على التالي: الظروف التي تؤدي إلى حصول إضراب سياسي شامل والوقت المناسب ستحددها قيادتا الحزب والنقابات وحدهما، وبتاريخ محدد منهما. ومن مهامهما تحديد أهداف الإضراب، التي، بحسب بيبيل وكاوتسكي وهيلفردينغ وبرنشتاين وغيرهم، كانت للوصول أو للدفاع عن البرلمان. وقبل كل شيء، يجب المحافظة على حرمة هذا المبدأ: لن يقوم العمال بأي شيء إلا بأوامر من الحزب وقيادته. مع هذه الفكرة، التي تعتبر أن قيادة الحزب قوية والجماهير ضعيفة، انضمت روزا لوكسمبورغ إلى المعركة. ولكن بقيامها بذلك ربما قد "قَوَّسَت القضيب" أكثر من اللازم بقليل.

وكان هناك جناح آخر للحركة العمالية كان على روزا لوكسمبورغ أن تواجهه هو الحزب الاشتراكي البولندي. هذا الحزب كان شوفينيا، كان هدفه المعلن تحقيق الاستقلال الوطني لبولندا. ولكن لم يكن هناك من أساس اجتماعي جماهيري لنضاله: وقف مالكو الأراضي والبرجوازية على حدى من النضال الوطني في حين كانت الطبقة العاملة البولندية (التي تنظر إلى العمال الروس كحلفاء لها) لا ترغب في النضال من أجل دولة قومية (إقرأ(ي) الفصل السادس، روزا لوكسمبورغ والمسألة القومية). في ظل هذه الظروف اعتمد الحزب الاشتراكي البولندي على أنشطة متهورة مثل تنظيم مجموعات إرهابية، وهكذا دواليك. هذا العمل لم يستند على الطبقة العاملة ككل، ولكن فقط على الهيئات الحزبية. هنا أيضا قلما ما اهتموا بالسيرورة الاجتماعية، وحصر القرار بيد القيادة لكل شيء. هنا أيضا (في نضالها الطويل ضد إرادوية الحزب الاشتراكي البولندي) أكدت روزا لوكسمبورغ على أهمية عامل العفوية.

والتيار الثالث في الحركة العمالية الذي ناضلت روزا ضده كان النقابوية، مزيج من الأناركية (بدون فرديتها ومع تركيز مبالغ فيه على التنظيم) والنقابات. وكانت فرنسا القاعدة الرئيسية لهذا الاتجاه حيث انتشرت جذوره في تربة التخلف الصناعي وضعف مركزة الصناعات. وقد اكتسب قوة بعد سلسلة من الهزائم منيت بها الحركة العمالية الفرنسية عامي ١٨٤٨ و١٨٧١، وخيانة ميلران وحزب جوريس، الذي نما الشكوك بين العمال من كل السياسيين والمنظمات. النقابوية اعتبرت الاضراب العام ثورة اجتماعية، بدلا من النظر إليه كعنصر أساسي من الثورة الحديثة. وقد رأت أن الإضراب العام يمكن يبدأ بموجب أمر، وسيتبعه سقوط النظام البرجوازي. هنا أيضا يظهر التبسيط للعامل الثوري، وهذا يعني أن الإرادوية والإرادة الحرة للقادة، المستقلة عن أي مد شعبي، يمكن أن تحرك نضالا حاسما. في وقت نبذوا فيه هذه الإرادوية، كان الإصلاحيون الألمان يطورون اتجاها مماثلا.

وفي وقت كانت فيه النقابوية الفرنسية ترسم صورة كاريكاتورية عن الإضراب العام والثورة، كان الانتهازيون الألمان، المتضاحكون من ذلك، يرمون جانبا فكرة الإضراب العام والثورات. في الوقت عينه كما ناضلت روزا ضد الاتجاه الألماني للإرادوية، ناضلت ضد النسخة الفرنسية من الشكل النقابوي، مظهرة أساسه البيروقراطي الذي ينكر لدور المبادرة العمالية والتعبئة الذاتية.

السبب الرئيسي لمبالغة روزا لوكسمبورغ في تقدير عامل العفوية والتقليل من شأن التنظيم ربما يكمن في الحاجة، خلال النضال المباشر ضد الإصلاحية، للتأكيد على العفوية كخطوة أولى في كل الثورات. من هذه المرحلة الأولى لنضال الطبقة العاملة، عممت روزا ذلك على نطاق واسع جدا ليشمل النضال بأكمله.

من دون شك أن الثورات تبدأ كعمل عفوي من دون قيادة الحزب. الثورة الفرنسية بدأت مع اقتحام سجن الباستيل. لم ينظم أحد هذا الهجوم. هل كان هناك حزب يقود الشعب خلال عملية التمرد؟ لا. حتى القادة اليعاقبة، على سبيل المثال روبسبيير، لم يعارضوا حتى ذلك الحين النظام الملكي، ولم يكن قد تنظموا بعد ضمن حزب. ثورة ١٤ تموز/يوليو عام ١٧٨٩ كانت فعلا عفويا للجماهير. الأمر نفسه ينطبق على الثورة الروسية سواء عام ١٩٠٥ وشباط/فبراير ١٩١٧. ثورة ١٩٠٥ بدأت من خلال اشتباك دموي بين الجيش القيصري والشرطة من جهة، وجماهير العمال من الرجال والنساء والأطفال من جهة أخرى، بقيادة الكاهن غابون (الذي كان في الواقع عميلا محرضا للقيصر). أين تنظم العمال بموجب قرار قيادي واضح وحاسم وفق سياسة اشتراكية تلقائية؟ بكل تأكيد لا. حملوا الأيقونات، وجاؤوا يتسولون لمحبوبهم "الأب الصغير"- القيصر- حتى يساعدهم ضد مستغليهم. تلك كانت الخطوة الأولى لثورة عظيمة. بعد ١٢ عاما، في شباط/فبراير عام ١٩١٧، الجماهير، هذه المرة كانت أكثر خبرة، وبينهم كان هناك أعداد كبيرة من الاشتراكيين أكثر من الثورة السابقة، هبت أيضا بشكل عفوي. لم يكن هناك أي مؤرخ يستطيع أن يدل بإصبعه إلى منظِم ثورة شباط/فبراير، التي كانت غير منظمة بكل بساطة.

مع ذلك، وبعد أن أطلقتها الانتفاضة العفوية، تمضي الثورات قدما بطريقة مختلفة. في فرنسا كان الانتقال من حكومة الجيروند النصف جمهورية إلى حكومة ثورية، التي قضت بشكل تام على علاقات الملكية الإقطاعية، لم يحصل ذلك بواسطة جماهير غير منظمة دون قيادة أي حزب، إنما تحت قيادة حاسمة لحزب اليعاقبة. من دون هذا الحزب في الحكم، هذه الخطوة المهمة، التي تطلبت معركة شاملة ضد الجيرونديين، كانت مستحيلة. قد يثور سكان باريس عفويا ودون قيادة ضد ملك بعد عقود من القمع. ولكن غالبيتهم كانت شديدة المحافظة، وتفتقر إلى التجربة التاريخية والمعرفة، وللتمييز، وبعد سنتين أو ثلاث سنوات من الثورة، بين الذين يريدون الدفع بالثورة بقدر ما ستذهب إليه وبين الذين هدفوا إلى بعض الحلول الوسط. الوضع التاريخي تطلب نضالا حتى النهاية ضد الحزب التسووي، حلفاء الأمس. وعي القيادة لهذا المهمة العظيمة جاء من جانب حزب اليعاقبة، الذي حدد موعد ونظم الإطاحة بالجيروند في ١٠ آب/أغسطس عام ١٧٩٢ وصولا إلى أدق التفاصيل.

وبالمثل لم تكن ثورة تشرين الأول/أكتوبر عفوية إنما نظمت بشكل عملي في كل تفاصيلها الهامة، بما في ذلك تاريخها، من قبل البلاشفة. خلال تعرجات الثورة بين شباط/فبراير وتشرين الأول/أكتوبر- مظاهرة حزيران/يونيو، أيام تموز/يوليو والتراجع المنظم اللاحق، رفض انقلاب كورنيلوف اليميني- اقترب العمال والجنود أكثر فأكثر من تأثير وتوجيه حزب البلاشفة. ومثل هذا الحزب كان ضروريا لدفع الثورة من مراحلها الأولى إلى النصر النهائي.

مع قبول فكرة أنه ربما قللت روزا لوكسمبورغ من أهمية هذا النوع من الأحزاب، على المرء أن لا يقول كلاما قليلا عن الجدارة التاريخية العظيمة الحقة التي تمتعت بها روزا لوكسمبورغ، التي في مواجهتها للإصلاحية السائدة أكدت أهمية القوة التي يمكنها كسر القشرة المحافظة- التي هي عفوية العمال. صلابتها الثابتة تكمن في ثقتها الكاملة في المبادرة التاريخية للعمال.

عندما يتم لفت النظر إلى بعض أوجه القصور في موقف روزا لوكسمبورغ بشأن الصلة بين العفوية والقيادة في الثورة، يجب على المرء أن يكون حذرا من استخلاص أن النقد للحركة الثورية، وخاصة لينين، كان في كل نقطة متوازنا وقريبا من الصحة، تحليلا ماركسيا.

في وقت عملت روزا لوكسمبورغ في بيئة كان فيها العدو الرئيسي للاشتراكية الثورية هو المركزية البيروقراطية، ونتيجة لذلك أكدت باستمرار على أساسية النضال الجماهيري، لينين يتعامل مع انعدام شكل الحركة العمالية في روسيا، حيث يكمن الخطر الأكبر في التقليل من أهمية التنظيم. تماما لا يمكن للمرء فهم وجهة نظر روزا لوكسمبورغ خارج ظروف البلاد والحركات العمالية التي عملت فيها، كذلك من الصعب فهم موقف لينين دون الإشارة إلى الظروف التاريخية الملموسة للحركة العمالية في روسيا.

تصورات لينين للعلاقة بين العفوية والتنظيم وضعها في كتابين أساسيين: ما العمل؟ (١٩٠٢) وخطوة إلى الأمام، خطوتان إلى الوراء (١٩٠٤). في وقت كتابتهما، الحركة العمالية الروسية لا يمكن مقارنتها بقوة تلك الموجودة في أوروبا الغربية، خاصة في أوروبا. كانت مكونة من مجموعات صغيرة منعزلة، ومستقلة ذاتيا إلى هذا الحد أو ذاك دون أي سياسات متفق عليها، وتتأثر بشكل هامشي بالماركسيين، مثل بليخانوف ولينين ومارتوف وتروتسكي. في هذه المجموعات، وبسبب ضعفها وعزلتها، كانت التوقعات قليلة الشأن. في حين كان يزداد نضال العمال الروس من خلال الإضرابات الجماهيرية والمظاهرات كانت المجموعات الاشتراكية تكتفي بمطالب اقتصادية آنية؛ هذا الاتجاه المسمى "اقتصادوي" كان مهيمنا في تلك المجموعات الاشتراكية. شن لينين في كتابه ما العمل؟ هجوما عنيفا ضد "الاقتصادوية" أو النقابوية البحتة. وقد اعتبر أن عفوية نضال الجماهير- كان ذلك واضحا في كل مكان في روسيا في ذلك الوقت- يجب استكمالها بالوعي وتنظيم حزب. يجب إنشاء حزب على امتداد البلد مع إصدار جريدة مركزية خاصة به من أجل توحيد المجموعات المحلية وبث في الحركة العمالية الوعي السياسي. يجب تقديم النظرية الاشتراكية إلى الطبقة العاملة

من الخارج؛ ذلك كان السبيل الوحيد للحركة العمالية للتحرك مباشرة للنضال من أجل الاشتراكية. إن الحزب المتوقع يجب أن يتكون إلى حد واسع من الثوريين المحترفين، العاملين تحت قيادة شديدة المركزية. القيادة السياسية للحزب يجب أن تكون في الوقت عينه هيئة تحرير الجريدة المركزية. وهذا يتطلب أن تمتلك القدرة على التنظيم أو إعادة تنظيم فروع الحزب داخل البلد، قبول أو طرد الأعضاء وتعيين اللجان المحلية. منتقدا المناشفة، كتب لينين عام ١٩٠٤:

"فكرة الرفيق مارتوف الأساسية... هي "ديمقراطية" زائفة على وجه التحديد، فكرة بناء حزب من الأسفل إلى الأعلى. فكرتي، على العكس من ذلك، هي "بيروقراطية" بمعنى أن الحزب يجب أن يبنى من الأعلى إلى الأسفل، من المؤتمر إلى أصغر منظمة في الحزب". (١١)

كيف غالبا ما استشهد الستالينيون وكثيرا ممن يسمون أنفسهم غير ستالينيين، العديد من الذين جاؤوا منهم بعد لينين، بكتابيه ما العمل؟ وخطوة إلى الأمام، خطوتان إلى الوراء، باعتبارهما قابلين للتطبيق جملة وتفصيلا، في كافة البلاد والمنظمات، بغض النظر عن مرحلة التطور!

كان لينين بعيدا عن الذين يسمون أنفسهم لينينيين. في بداية العام ١٩٠٣، وفي المؤتمر الثاني للحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي، أشار لينين إلى بعض المبالغات في صيغ كتاب ما العمل؟: "الاقتصادويون قوّسوا القضيب لجانب واحد. وبهدف تصويبه مرة أخرى، كان يجب أن يقَوَّس للجانب الآخر وهذا ما فعلته". (١٢) بعد عامين، وفي مشروع قرار خطي للمؤتمر الثالث، أكد لينين أن وجهة نظره التنظيمية كانت غير قابلة للتطبيق على الصعيد العالمي: "في ظل الظروف السياسية الحرة حزبنا يمكن وسيتم بناؤه كليا على أساس مبدأ الانتخاب. في ظل النظام الاستبدادي هذا الأمر غير قابل للتحقيق". خلال ثورة عام ١٩٠٥، مع الزيادة الهائلة في عدد أعضاء الحزب، توقف لينين عن الحديث عن ثوريين محترفين. الحزب لم يعد منظمة نخبوية:

"في المؤتمر الثالث أعربت عن رغبتي بأن تتألف لجان الحزب من مثقفَين مقابل ثمانية عمال. كم عفا عليها الزمن هذه الرغبة. الآن سيكون مرغوبا فيه أنه في لجان الحزب الجديد، مقابل كل مثقف ينتسب إلى الاشتراكية الديمقراطية، يجب أن يكون مقابله بضعة مئات من العمال الاشتراكيين-الديمقراطيين".

أما في كتاب ما العمل؟ فكتب لينين أن العمال من خلال جهودهم الذاتية يمكنهم فقط الوصول إلى الوعي النقابي، لاحقا كتب: "الطبقة العاملة هي بشكل غريزي وعفوي اشتراكية ديمقراطية" (١٣) "حالة البروليتاريا الخاصة في المجتمع الرأسمالي تقود العمال للسعي من أجل الاشتراكية؛ اتحادهم ضمن حزب اشتراكي يعزز قوة العفوية في المراحل المبكرة جدا من الحركة". في حين أراد لينين عام ١٩٠٢ حزبا يكون ضيقا، متماسكا بشدة، مجموعة صغيرة مع معايير صارمة جدا للعضوية، عام ١٩٠٥ كتب أن العمال يجب أن يتدرجوا "في صفوف منظمات الحزب بمئات الآلاف". مرة أخرى، في عام ١٩٠٧، كتب لينين في مقدمة مجموعة "١٢ سنة":

"الخطأ الأساسي لأولئك الذين يسخرون من كتاب ما العمل؟ اليوم هو أنهم يقتطعون هذا العمل خارج سياق الظرف التاريخي الواضح، اليوم مرت فترة طويلة منذ أن تطور حزبنا... كتاب ما العمل؟ يصحح بطريقة جدلية الاقتصادوية، ومن الخطأ اعتبار محتويات الكتيب خارج ارتباطه بهذه المهمة". (١٤)

غير راغب بإساءة استخدام كتاب ما العمل؟، لم يستطب للينين اقتراح ترجمته عام ١٩٢١ إلى لغات أخرى غير الروسية. وقد قال لماكس ليفين: "غير مرغوب فيها؛ الترجمة يجب أن تصدر مع تعليقات صائبة التي يجب أن يكتبها رفيق روسي على علم عميق بتاريخ الحزب الشيوعي في روسيا من أجل تجنب تطبيق خاطئ له". (١٥)

عندما كانت الأممية الشيوعية تناقش نظامها الداخلي، حاجج لينين ضد أولئك الذين كانوا يقترحونه، وقال أنهم "روس للغاية"، وشديدي المركزية، على الرغم من أن هذا النظام الداخلي قد نص على حرية النقد داخل الأحزاب وعلى سيطرة قيادة الحزب من الأسفل. المركزية الشديدة، قال لينين، لا تتناسب مع الظروف في أوروبا الغربية. (صحيح أنه في حزب لينين في ذلك الوقت كان مركزيا للغاية، وحتى شبه عسكري، لكن هذا النموذج أرغموا على اعتماده نتيجة الظروف القاسية للحرب الأهلية).

رؤية لينين للحزب، حول تقويس القضيب بشدة باتجاه المركزية، يجب النظر إليها ضمن سياق الأوضاع في روسيا.

ضمن روسيا القيصرية المتخلفة، حيث كانت الطبقة العاملة أقلية صغيرة، فكرة أن الطبقة العاملة تستطيع وحدها أن تحرر نفسها كان يمكن بسهولة تجاوزها. وباستمرار ذلك الوضع، كان لروسيا تقليد مديد لمنظمات صغيرة تحاول أن تكون بديلا عن النضال الجماهيري الأساسي. في فرنسا، الشعب هو من أطاح بالنظام الملكي والنظام الإقطاعي؛ أما في روسيا، حاول الدجنبريون والناردونيك الإرهابيون القيام بذلك على عاتقهم. (١٦)

بيان ماركس حول الطابع الديمقراطي للحركة الاشتراكية، المستشهد فيه أعلاه، وأقوال لينين، أن الاشتراكية الديمقراطية الثورية تمثل: "اليعاقبة الشديدي الصلة بتنظيم البروليتاريا"، هي متناقضة بكل تأكيد. أقلية منظمة وواعية على رأس جماهير غير منظمة تناسب ثورة برجوازية، التي هي، بعد كل شيء، ثورة لصالح الأقلية. ولكن الفصل بين وعي الأقلية ولاوعي الأكثرية، الفصل بين العمل الذهني والعمل اليدوي، وجود مدير ورئيس العمال من جهة وكتلة من العمال المطيعين من جهة أخرى، وتطعيم ذلك بـ"اشتراكية" عن طريق القضاء على جوهر الاشتراكية، التي تعني سيطرة العمال الجماعية على مصيرهم.

من خلال مقارنة مفاهيم لوكسمبورغ ولينين يمكن للمرء أن يحاول تقييم الحدود التاريخية لكل منها، التي خلقتها، من دون شك الظروف الخاصة التي عمل فيها كل منهما.

مؤكدة على أن تحرر الطبقة العاملة لا يمكن أن يتم إلا على أيدي الطبقة العاملة نفسها، كانت روزا لوكسمبورغ قليلة الصبر تجاه كل الاتجاهات العصبوية، التي عبرت عن نفسها من خلال انشقاقها عن الحركة الجماهيرية والمنظمات الجماهيرية.

على الرغم من أنه ولسنوات خلافها مع قيادة الأغلبية في الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني، استمرت في إصرارها على أنه من واجب الاشتراكيين الثوريين البقاء في هذه المنظمة. حتى بعد أن وقف هذا الحزب إلى جانب الحرب الامبريالية، وبعد طرد كارل ليبكنخت من الكتلة البرلمانية (١٢ كانون الثاني/يناير ١٩١٦)، استمرت وليبكنخت في عضويتهما في الحزب على أساس أن الانفصال عن الحزب سيحول المجموعة الثورية إلى عصبة. لم تتخذ روزا هذا الموقف فقط عندما كانت زعيمة أقلية ثورية ضئيلة الحجم داخل الحزب. بل حافظت على هذا الموقف عندما حصلت عصبة سبارتاكوس على نفوذ وباتت قوة معترف بها في وقت طالت فيه الحرب.

كما نعلم، أنه في ٢ كانون الأول/ديسمبر عام ١٩١٤ نائب واحد، ليبكنخت، صوت ضد اعتمادات الحرب. في شهر آذار/مارس عام ١٩١٥، انضم أوتو روهل إليه. في حزيران/يونيو عام ١٩١٥ وقع ألف عضو بيانا عارضوا فيه سياسات التعاون الطبقي، وفي كانون الأول/ديسمبر عام ١٩١٥ صوت ما لا يقل عن ٢٠ نائب ضد اعتمادات الحرب في الرايختساغ. في آذار/مارس عام ١٩١٦ طردت كتلة الحزب الاشتراكي الديمقراطي البرلمانية المعارضين منها، على الرغم من عدم امتلاكهم القدرة على طردهم من الحزب.

ما حصل في البرلمان كان انعكاسا لما كان يحدث خارجه، في المصانع والشوارع، وفروع الحزب ومنظمة الشباب الاشتراكية.

الجريدة المناهضة للحرب "الأممية"، التي تحررها روزا لوكسمبورغ وفرانز مهرينغ، وزعت ٥٠٠٠ نسخة فور صدورها وفي يوم واحد فقط (وقد جرى منعها على الفور من الشرطة). (١٧) منظمة الشباب الاشتراكية، أعلنت خلال مؤتمر سري عقد خلال فصح العام ١٩١٦، عن تأييد بأغلبية ساحقة لسبارتاكوس. في ١ أيار/مايو عام ١٩١٦ تظاهر ١٠ آلاف عامل في ساحة بوتسدام في برلين ضد الحرب. في مدن أخرى- دريسدن، ينا، هاناو- خرجت أيضا مظاهرات مناهضة للحرب. في ٢٨ حزيران/يونيو عام ١٩١٦، أي اليوم الذي حكم فيه على ليبكنخت بالسجن لمدة عامين ونصف مع الأشغال الشاقة، أضرب ٥٥ ألف عامل في مصانع الذخائر في برلين عن العمل تضامنا معه. في اليوم نفسه، عمت التظاهرات والإضرابات مدن شتوتغارت وبريمن وبراونشفايغ وغيرها من المدن. وبتأثير من الثورة الروسية، في نيسان/أبريل عام ١٩١٧، نظم إضراب شامل في مصانع الذخائر في جميع أنحاء البلاد: في برلين وحدها أضرب ٣٠٠ ألف عامل. كما حصلت موجة

أخرى من الإضرابات في مصانع الذخائر خلال شهري كانون الثاني/يناير وشباط/فبراير عام ١٩١٨ وشملت ما لا يقل عن ١،٥ مليون عامل.

كانت طبيعة هذه الإضرابات سياسية في جوهرها. إضراب برلين شمل نصف مليون عامل الذين طالبوا بالسلام الفوري ودون ضم الأراضي وبالتعويضات، وحق الشعوب بتقرير مصيرها؛ وكان الشعار والهتاف الثوري الرئيسي: "سلام، حرية، خبز". قتل ٦ عمال خلال الإضراب ووقع العديد من الجرحى. وجند بشكل إجباري الآلاف من العمال في الجيش.

ضمن هذا الوضع استمرت روزا لوكسمبورغ في المحاججة للبقاء في الحزب الاشتراكي الديمقراطي حتى شهر نيسان/أبريل عام ١٩١٧، عندما قام الوسط، بقيادة كاوتسكي وبيرنشتاين وهاس، بالانشقاق عن اليمين وشكل حزبا جديدا- الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل. كان الأخير حزبا برلمانيا ولا يريد أن يحرض العمال على الإضرابات الجماهيرية أو للتظاهر ضد الحرب، ولكنه هدف إلى الضغط على حكومات الدول المتحاربة للتفاوض على السلام. عصبة سبارتاكوس، التي تأسست في كانون الثاني/يناير عام ١٩١٦ كتكتل داخل الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني، ارتبطت الآن بالحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل، محافظة على تنظيمها وحقها بالعمل المستقل. فقط وعند اندلاع الثورة الألمانية في ٢٩ كانون الأول/ديسمبر عام ١٩١٨ قطعت العصبة علاقتها مع الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل وأسست حزبا مستقلا- الحزب الشيوعي في ألمانيا (سبارتاكوس).

كان هناك ضغوط مستمرة من صفوف الثوار لترك الحزب الاشتراكي الديمقراطي ولاحقا الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل. ولكن روزا لوكسمبورغ قاومتها. كان هناك سابقة للانشقاق حصلت عام ١٨٩١، حين تركت مجموعة كبيرة الحزب الاشتراكي الديمقراطي، حيث اتهمته بالإصلاحية، وأسست الحزب الاشتراكي المستقل. وقد استمر هذا الحزب لفترة قصيرة قبل أن يختفي تماما.

في ٦ كانون الثاني/يناير عام ١٩١٧ واجهت روزا لوكسمبورغ أولئك الثوار الذين رغبوا بالانشقاق عن الحزب الاشتراكي الديمقراطي:

"أيا يكن جديرا بالثناء ومفهوما نفاذ الصبر والمرارة التي تؤدي بأفضل العناصر التي تركت الحزب اليوم، ولكن الهروب يبقى هروبا. إنها خيانة للجماهير، تباع للبرجوازية، تطوى وتخنق بقبضة شيدمان وليجين. يمكن للمرء أن ينسحب من المجموعات العصبوية الصغيرة عندما لا تناسبه بهدف العثور على مجموعة عصبوية جديدة. الأمر ليس سوى وهما غير ناضج يريد أن يحرر البروليتاريا من نير البرجوازية الثقيل والرهيب من خلال انسحاب بسيط، ويعتبرونه، بالتالي، مثالا شجاعا يحتذى به. إعادة بطاقات العضوية باعتبارها ضربا من وهم التحرير هي ليست سوى وهما، يقفون على رؤوسهم، وكأن القوة تكمن في بطاقة العضوية. كلاهما أقطاب مختلفة من القماءة التنظيمية، المرض البنيوي للاشتراكية الديمقراطية الألمانية. انهيار الاشتراكية الديمقراطية الألمانية هي عملية

تاريخية ذات أبعاد هائلة، هناك صراع عام بين الطبقة العاملة والبرجوازية، ولا ينبغي للمرء الهروب من المعركة من أجل تنفس هواء نقي خلف شجيرة تحميه. معركة العمالقة هذه يجب خوضها حتى النهاية. النضال ضد الاشتراكية الديمقراطية الرسمية الخانقة والقاتلة، وضد النقابات الرسمية، التي فرضت من قبل الطبقة الحاكمة على رقبة الطبقة العاملة التي ضللوها وخانوها، يجب النضال ضدها بكل قوة حتى النهاية. يجب أن نقف إلى جانب الجماهير حتى النهاية، حتى خلال أكثر النضالات فظاعة. تصفية "كومة الفساد المنظم"، التي تسمي نفسها اليوم اشتراكية ديمقراطية، ليس شأنا خاصا لعدد قليل، أو مجموعات قليلة... المصير الحاسم للصراع الطبقي في ألمانيا ومنذ عقود هو في النضال ضد قيادات الاشتراكية الديمقراطية وضد قيادة النقابات العمالية، وهذه الكلمات تنطبق على كل واحد منا حتى النهاية: "هنا أقف، ولا أستطيع أن أفعل شيئا سوى ذلك". (١٨)

معارضة روزا لوكسمبورغ لترك الحزب العمال الجماهيري لم يتضمن أي تنازل للإصلاحية. وهكذا وخلال مؤتمر سبارتاكوس في ٧ كانون الثاني/يناير عام ١٩١٧ صدر القرار التالي المستوحى منها: "المعارضة ستبقى في الحزب من أجل إحباط ومحاربة سياسة الأغلبية في كل خطوة، وللدفاع عن الجماهير بوجه سياسة امبريالية متسترة بعباءة الاشتراكية الديمقراطية، واستعمال الحزب باعتباره مجالا لاستقطاب البروليتاريا، وللنضال الطبقي المناهض للعسكرة". (١٩)

تردد روزا لوكسمبورغ في تأسيس حزب ثوري مستقل يعود إلى بطئها في الاستجابة للظروف المتغيرة. كان ذلك عنصرا أساسيا في التأخر في بناء حزب ثوري في ألمانيا. ومع ذلك، لم تكن لوحدها. لم يكن لينين أسرع من روزا في القطع مع كاوتسكي. لا يوجد أرضية للقصة الستالينية التي تقول إن لينين كان معارضا لتمسك اليسار الثوري بالحزب الاشتراكي الديمقراطي واستمرار تعاونه مع كاوتسكي. (٢٠) في الواقع، كانت روزا لوكسمبورغ أكثر وضوحا في تقييمها لكاوتسكي وصحبه، وانفصلت عنهم قبل لينين بوقت طويل. لمدة عقدين استمر لينين باعتبار كاوتسكي أعظم ماركسي حي. على سبيل المثال: في كتاب ما العمل؟ اعتبر لينين كاوتسكي المرجع الأساسي لموضوعه، وأثنى على الحزب الاشتراكي الديمقراطي واعتبره نموذجا للحركة الروسية. في كانون الأول/ديسمبر عام ١٩٠٦ كتب لينين: "طليعة الطبقة العاملة الروسية تعرف منذ بعض الوقت أن كارل كاوتسكي هو كاتب"؛ ووصف كاوتسكي بأنه "زعيم الحزب الاشتراكي الديمقراطي الثوري الألماني" (٢١) في آب/أغسطس عام ١٩٠٨ استشهد بكاوتسكي حول مسائل الحرب والعسكرة. (٢٢) عام ١٩١٠، في وقت كانت روزا لوكسمبورغ تجادل كاوتسكي جول مسألة الطريق إلى السلطة، وقف لينين معه ضدها. وفي نهاية شهر شباط/فبراير عام ١٩١٤ احتكم لينين إلى كاوتسكي في خلافه مع روزا لوكسمبورغ حول المسألة الوطنية. فقط عند اندلاع الحرب، وخيانة كاوتسكي للأممية، تحطمت أوهام لينين فيه. ثم اعترف لينين: "روزا لوكسمبورغ كانت على حق؛ أدركت منذ

وقت طويل أن كاوتسكي كان المنظر، في خدمة الأغلبية في الحزب، باختصار، في خدمة الانتهازية". (٢٣)

شكل التنظيم لحزب العمال الاشتراكي في كل مكان وفي كل مرحلة من مراحل تطور الصراع على السلطة له تأثير هام على قوة العمال أنفسهم. وبالتالي يكون النقاش حول شكل تنظيم الحزب الثوري له أهمية تتجاوز المرحلة التي يجري فيها تطبيق النموذج المقبول من التنظيم. لم يجر في أي بلد نقاش حاد اللهجة حول المشاكل التنظيمية كما حصل في الحركة العمالية الروسية. الكثير من هذا يعود إلى المسافة الشاسعة التي تفصل بين الهدف النهائي للحركة والواقع شبه الإقطاعي والاستبدادي الذي يعيق نمو منظمة حرة للعمال.

وحين كان موقف روزا لوكسمبورغ بشأن العلاقة بين العفوية والتنظيم انعكاسا للاحتياجات العاجلة التي تواجه الثوار في الحركة العمالية التي تسيطر عليها البيروقراطية المحافظة، موقف لينين الأساسي- في فترة ١٩٠٢-١٩٠٤- كان انعكاسا لانعدام شكل حركة ثورية حية ومكافحة في مرحلة أولى من تطورها في ظل نظام متخلف وشبه إقطاعي واستبدادي.

ومع ذلك، مهما كانت الظروف التاريخية التي أثرت في أفكار روزا بشأن التنظيم، أظهرت هذه الأفكار ضعفا كبيرا خلال الثورة الألمانية عامي ١٩١٨-١٩١٩.

—

الهوامش:

(1). R. Luxemburg, Ausgewählte, vol.I, p.269.

(2). F. Engels, 1895 Introduction, K. Marx, The Class Struggle in France.

(3). R. Luxemburg, Ausgewählte, vol.II, p.606.

(4). Dokumente, vol.II, pp.704-705.

(5). R. Luxemburg, Ausgewählte, vol.I, p.104.

(6). Leipziger Volkszeitung, June 1913, pp.26-28.

(7). Die Neue Zeit, 1904, p.491.

(٨). خطاب روزا لوكسمبورغ في المؤتمر التأسيسي للحزب الشيوعي الألماني.

(9). Die Neue Zeit, 1904, p.535.

(10). R. Luxemburg, Ausgewählte, vol.I, pp.235-236.

(11). V.I. Lenin, Works (Russia), vol.VII, pp.365-366.

(12). V.I. Lenin, Works, vol.VI, p.21.

(13). V.I. Lenin, Works, vol.VIII, p.37, quoted in R. Dunayevskaya, Marxism and Freedom (New York, 1958), p.182.

(14). V.I. Lenin, Works, vol.XIII, p.85.

(١٥). في الواقع، تُرجِم هذا الكتيب إلى العديد من اللغات من دون الأخذ بتعليق لينين الذي يعتبره ضروريا.

(١٦). ولم يكن من قبيل المصادفة أن يوافق الاشتراكيون الثوريون الروس، أعداء البلشفية المستقبليين، بشدة على مفهوم لينين للتنظيم الحزبي (I. Deutscher, The Prophet Armed, (London, 1954), p.94n)).

(17). Dokumente, vol.II, p.135.

(18). Dokumente, vol.II, p.525.

(19). Dokumente, vol.II, p.528.

(20). See, for instance, J.V. Stalin, Some Questions Concerning the History of Bolshevism, Works, vol.XIII, pp.86-104; Dokumente, vol.II, especially the preface; F. Oelssner, Rosa Luxemburg (Berlin, 1956).

(21). V.I. Lenin, Works, vol.XI, p.330.

(22). V.I. Lenin, Works, vol.XI, pp.173-176.

(23). V.I. Lenin, Letter to Shliapnikov, 27 October 1914.

روزا لوكسمبورغ والمسألة الوطنية

روزا لوكسمبورغ، القائدة في حزب العمال ببولندا، البلد الذي تتقاسمه ثلاث امبراطوريات- روسيا وألمانيا والنمسا- وجدت من الضروري اتخاذ موقف واضح بشأن المسألة الوطنية. وقد اتخذته بالفعل منذ عملها على بحثها الأول عام ١٨٩٦، التنمية الصناعية في بولندا، حتى نهاية حياتها، على الرغم من صراعاتها الحادة مع لينين حول هذا الموضوع.

وكان موقفها هذا يشكل استمرارية وابتعادا في الوقت عينه عن مواقف ماركس وإنجلز حول المسألة الوطنية، ولكي نفهم ذلك بشكل صحيح، من الضروري إلقاء نظرة- ولو عابرة- على موقفهما من هذه المسألة.

عاش ماركس وإنجلز مرحلة صعود الرأسمالية، وهي فترة شهدت الثورات الديمقراطية البرجوازية. وكانت الدولة القومية هي إطار الديمقراطية البرجوازية، وكان واجب الاشتراكيين، وفقا لهما، كان النضال "بالتحالف مع البرجوازية ضد الملَكية المطلقة والإقطاعية والبرجوازية الصغيرة" (١). واعتبروا عام ١٨٤٨ أن العدو الأكبر لكل الثورات الديمقراطية، هو روسيا القيصرية، والعدو الثاني هو ملَكية هابسبورغ. وكانت روسيا المسيطرة على بولندا على رأس حملة قمع الثورة الديمقراطية بقيادة لويوش كوشوت في هنغاريا عام ١٨٩٤، كما منعت روسيا والنمسا، سواء عبر التدخل المباشر أو غير المباشر في الشؤون الداخلية للألمان والإيطاليين، التوحيد الكامل لهاتين الدولتين. ماركس وإنجلز دعما جميع الحركات الوطنية المناهضة للحكم القيصري والهابسبورغي. وفي الوقت عينه، عارضا الحركات الوطنية التي كانت ألعوبة بيد القياصرة والهابسبورغيين.

وكان لاستقلال بولندا تداعيات ثورية عظيمة، بحسب قول ماركس وإنجلز. أولا، لأن ذلك سيؤدي إلى نشوء حاجز يفصل بين الجمهوريات الثورية الديمقراطية في غرب ووسط أوروبا، وبين روسيا "شرطية أوروبا". ثانيا، إن إمبراطورية هابسبورغ، المهتزة بفعل الانتفاضة الوطنية للبولنديين، ستنهار بفعل تتابع الانتفاضات الوطنية في الدول الأخرى، وبالتالي ستتحرر هذه الأخيرة، بحيث يمكن للنمسا الألمانية أن تتوحد مع بقية ألمانيا، وهذا سيشكل الحل الثوري الديمقراطي الأكثر اتساقا للمسألة الألمانية. ثالثا، إن استقلال بولندا يشكل ضربة حادة لليونكرز [النظام الإقطاعي] في بروسيا، وبالتالي ستعزز النزعات الثورية الديمقراطية في كل ألمانيا.

ودعا ماركس وإنجلز كل الحركات الديمقراطية في أوروبا لشن حرب على روسيا القيصرية، العدوة الأساسية لكل تقدم. كما طلبا من الحركة الثورية في ألمانيا أن تحمل السلاح من أجل تحرير بولندا. ومن شأن الحرب الديمقراطية ضد القيصرية أن تحمي استقلال بولندا وألمانيا، وأن تسرع سقوط الملكية المطلقة في روسيا وأن تعطي دفعا قويا للقوى الثورية في جميع أنحاء أوروبا.

دعم ماركس وإنجلز الحركات الوطنية في بولندا وهنغاريا، ولم يؤيدا غيرهما. وهكذا، على سبيل المثال، فخلال ثورة عام ١٨٤٨، أدانا الحركات الوطنية السلافية الجنوبية- التي تألفت من الكروات والصرب والتشيك. وقد اتخذا هذا الموقف، لأنهما اعتبرا أن هذه الحركات ساعدت موضوعيا العدو الرئيسي: الجيش الكرواتي، الذي يكره المجريين أكثر من كرهه لإمبراطورية هابسبورغ، كما ساعد جيش القيصر الروسي في هجومه على المجر، وساعد الجيش التشيكي خلال قمعه لثورة فيينا.

في جميع الحروب التي شاركت فيها روسيا القيصرية، لم يرض ماركس وإنجلز اتخاذ موقف الحياد أو معارضة الجانبين المتصارعين. لكنهما عارضا التدخل الروسي لوحده. وقد انتقدا الحكومتين البريطانية والفرنسية خلال حرب القرم لعدم إكمالهما الحرب ضد روسيا حتى النهاية. في الحرب الروسية- التركية التي اندلعت عام ١٨٧٧، أيد ماركس مرة أخرى "الأتراك البواسل" (٢). وحتى نهاية حياتهما كانت روسيا القيصرية بالنسبة لماركس وإنجلز معقل الرجعية، والحرب ضدها هو واجب ثوري.

وبسبب معيارهما الذي استعملاه للحكم على الحركات الوطنية- وتأثيرها على الثورات البرجوازية في غرب ووسط أوروبا- كانت استنتاجات ماركس وإنجلز بطبيعة الحال محدودة بشأن المسألة الوطنية في أوروبا (وشمال أميركا) حيث التطور الرأسمالي كان أكثر أو أقل تقدما. لم يساهما، وهو أمر مبرر في ذلك الوقت، في دعم مفهوم الثورة البرجوازية القومية في آسيا وأفريقيا وجنوب أميركا. وهكذا، على سبيل المثال، كتب إنجلز: "برأيي المستعمرات التي تحتلها أوروبا، في كندا والكاب وأستراليا ستصبح كلها مستقلة، من ناحية أخرى، الدول التي يسكنها السكان الأصليون، والتي أخضعت، كالهند والجزائر والمستعمرات الألمانية والاسبانية والهولندية يجب أن تسيطر عليها البروليتاريا وبأسرع وقت ممكن بهدف تحقيق استقلالها" (٣). يعتقد إنجلز أن بإمكان الهند أن تحرر نفسها عبر ثورة، ولكن هذا الحدث له أهمية ثانوية بالنسبة لأوروبا. وإذا حررت الهند نفسها، "فإن ذلك سيشير... إلى أن البروليتاريا التي تحرر نفسها لا يمكنها شن حربا كولونيالية". ولكن فكرة تحرر المستعمرات يمكن أن تسبق الثورات الاشتراكية في أوروبا، أو حتى تساعدها إلى حد كبير، كانت غريبة [الفكرة] تماما عن إنجلز (وكذلك بالنسبة لماركس). إذا كان على الهند والجزائر ومصر أن يحرروا أنفسهم، إذا:

"سيكون ذلك بالتأكيد أفضل شيء بالنسبة لنا. ينبغي القيام ما يلزمنا في بلادنا. وعندما تتم إعادة تنظيم أوروبا وأميركا الشمالية، فإن من شأن هذه السلطة الهائلة أن تشكل مثالا للدول شبه المتحضرة التي سيكون لديها لديها من تتمثل به من تلقاء نفسها" (٤).

روزا لوكسمبورغ، وعلى خطى ماركس وإنجلز، اعتبرت أن الحركة الوطنية في أوروبا، تشكل أهمية ضئيلة بالنسبة بالنسبة للحركات الوطنية في آسيا وأفريقيا. وكما فعل ماركس وإنجلز، رفضت

اتخاذ موقفا مطلقا للحكم على حركات الاستقلال الوطني. ولم تكن، مع ذلك، مجرد تابعة تكرر كلام مؤسسي الاشتراكية العلمية.

في حياتها السياسية المبكرة أشارت إلى أن الوضع في أوروبا بشكل عام، وفي روسيا تحديدا، قد تغير كثيرا منذ نهاية القرن التاسع عشر وأن موقف ماركس وإنجلز من الحركات الوطنية في أوروبا لا يمكن الدفاع عنه.

لقد تجاوزت منطقتا غرب ووسط أوروبا حقبة الثورات البرجوازية الديمقراطية. وتمكن اليونكرز في بروسيا من إرساء نظامهم عن طريق القوة دون الحاجة إلى المزيد من المساعدات القيصرية. في الوقت نفسه، لم يعد الحكم القيصري يشكل معقلا منيعا، فالتشققات العميقة بدأت تصيب جدرانه: الإضرابات العمالية لعمال وارسو، وبتروغراد وموسكو وفي مختلف أنحاء الإمبراطورية الروسية، بالإضافة إلى صحوة الفلاحين. في الواقع، في زمن ماركس وإنجلز كانت الثورة تتمركز في غرب ووسط أوروبا، أما اليوم، فمنذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى بداية القرن العشرين امتدت الثورات نحو الشرق، نحو روسيا. في زمن ماركس كانت القيصرية الشرطي الذي يقمع الثورات في الأماكن الأخرى، والآن القيصرية ذاتها بحاجة إلى مساعدة (خاصة المساعدة المالية) من القوى الرأسمالية الغربية. فبدلا من الرصاص والروبل الروسي المتجه في السابق نحو الغرب، اليوم، الذخائر الألمانية والفرنسية والبريطانية والبلجيكية والأموال تتدفق إلى روسيا. وأشارت روزا لوكسمبورغ إلى المزيد من التغيرات الأساسية التي حدثت بما يتعلق بالتطلعات الوطنية في بلدها، بولندا. في أيام ماركس وإنجلز كان النبلاء البولنديون قادة الحركة الوطنية، أما الآن ومع تزايد نمو الرأسمالية في البلاد، فإنها تفقد أرضيتها الاجتماعية وتحولت نحو القيصرية كحليفة لها في قمع التحركات التقدمية في بولندا. والنتيجة كانت أن النبلاء البولنديين جمدوا التطلعات الرامية إلى تحقيق الاستقلال الوطني. كما أصبحت البرجوازية البولندية معادية للرغبة في الاستقلال الوطني، كما وجدت أسواقا لصناعاتها في روسيا. "بولندا مرتبطة بروسيا بسلاسل ذهبية"، تقول روزا لوكسمبورغ. "ليست دولة وطنية ولكنها دولة النهب التي تتوافق مع التطور الرأسمالي" (٥). الطبقة العاملة في بولندا كذلك، بحسب روزا لوكسمبورغ، ليست مهتمة بفصل بولندا عن روسيا، كما يرونها في موسكو وبتروغراد وحلفاءهم في وارسو وودج. وبالتالي لم يكن هناك قوى اجتماعية ذات وزن في بولندا مهتمة بالنضال من أجل تحقيق الاستقلال الوطني. بقيت الانتلجنسيا تحمل هذه الأفكار، لكنها في حد ذاتها تمثل قوة اجتماعية صغيرة. روزا لوكسمبورغ خلصت إلى تحليل القوى الاجتماعية في بولندا وموقفها من المسألة الوطنية بالكلمات التالية: "الاتجاهات التي تقود التطور الاجتماعي أوضحت لي أنه لا يوجد طبقة اجتماعية في بولندا تحمل في الوقت عينه المصلحة والقدرة على تحقيق استعادة بولندا" (٦).

من هذا التحليل وصلت روزا إلى استنتاج أن شعار الاستقلال الوطني في ظل الرأسمالية لا قيمة تقدمية له، ولا يمكن تحقيقه عبر قوى داخلية في بولندا، يمكن تحقيقه فقط عبر تدخل قوة إمبريالية أو

أكثر. في ظل الاشتراكية، حاججت روزا لوكسمبورغ، لن يكون هناك أي مكان لشعار الاستقلال الوطني، كما أن القمع الوطني لن يستمر في ظل الوحدة الأممية والإنسانية. وهكذا في ظل الرأسمالية الاستقلال الحقيقي لبولندا لا يمكن أن يتحقق، وكل خطوة في هذا الاتجاه لا قيمة تقدمية لها، أما في ظل الاشتراكية لن يكون هناك حاجة لمثل هذا الشعار. وبالتالي كان على الطبقة العاملة أن لا تناضل من أجل حقها في تقرير مصير بولندا، وكان هذا الصراع، في الواقع، رجعيا. شعارات الطبقة العاملة الوطنية ينبغي أن تقتصر على طلب الاستقلال الوطني في المجال الثقافي.

باتخاذها هذا الموقف، دخلت روزا لوكسمبورغ وحزبها (الحزب الاشتراكي الديمقراطي في مملكة بولندا وليتوانيا)، في صراع مرير مع الجناح اليميني للحزب الاشتراكي البولندي الذي يقوده بيلسودسكي (الديكتاتور العسكري الذي حكم بولندا عام ١٩٣٠). وقد شن هؤلاء الوطنيون حملات كلامية ضد الاشتراكيين. وافتقروا إلى أساس شامل لقوميتهم، وابتدعوا مغامرات، بالتآمر مع القوى الأجنبية وصلت إلى حد الاعتماد على الحرب العالمية المستقبلية كطريق لتحقيق الاستقلال الوطني. في غاليسيا، معقل الجناح اليميني للحزب الاشتراكي البولندي، تم التعامل مع البولنديين تحت حكم النمسا بطريقة أفضل من تعامل الإمبراطورية الروسية معهم، وذلك بشكل أساسي بسبب حكام إمبراطورية هابسبورغ، المتعددة الجنسيات، التي اضطرت إلى الاعتماد على الحكم البولندي لتحصين النظام الإمبريالي. وبالتالي مال قادة الحزب الاشتراكي البولندي إلى تفضيل إمبراطورية هابسبورغ على تلك الروسية، وخلال الحرب العالمية الأولى تصرفوا كعملاء لفيينا وبرلين. في وقت سابق، وخلال ثورة عام ١٩٠٥، داسزينسكي، زعيم الحزب الاشتراكي البولندي في غاليسيا، ذهب إلى حد إدانة الإضرابات الجماهيرية للعمال البولنديين، لأنه، بحسب رأيه، تميل إلى حصر نضال العمال البولنديين بمواجهة روسيا، وبالتالي ستقوض الوحدة الوطنية البولندية. وكما رأينا بشكل واضح آراء خصوم روزا لوكسمبورغ داخل الحركة العمالية البولندية يمكن أن نفهم جيدا الموقف الذي اتخذته حول المسألة الوطنية البولندية.

النضال الذي خاضته روزا ضد الشوفينيين في الحزب الاشتراكي البولندي وسم كامل موقفها من المسألة الوطنية بشكل عام. وبمعارضتها لقومية الحزب الاشتراكي البولندي ذهبت بعيدا في معارضة كل إشارة إلى حق تقرير المصير في برنامج الحزب. ذلك لأن الحزب، الحزب الاشتراكي الديمقراطي في بولندا وليتوانيا، خرج باكرا من الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي عام ١٩٠٣، ولم ينضم أبدا في وقت لاحق تنظيميا إلى البلاشفة.

وافق لينين على معارضة روزا لوكسمبورغ للحزب الاشتراكي البولندي، وجادل معها حول أن واجب الاشتراكيين البولنديين لم يكن للنضال من أجل الاستقلال الوطني أو الانفصال عن روسيا، ولكن من أجل تحقيق الوحدة الدولية لعمال روسيا وبولندا. ومع ذلك، وباعتباره يعيش داخل دولة قمعية، كان لينين، وعن حق، حذرا من أن الموقف العدمي حول المسألة الوطنية سيزيد من تشدد الشوفينية الروسية. ومع ذلك، يمكن للعمال البولنديين، ويجب عليهم، تجنب المطالبة بإقامة دولتهم،

وينبغي على الاشتراكيين في روسيا النضال من أجل حق البولنديين بأن يكون لهم دولتهم المنفصلة إذا ما رغبوا بذلك:

"الفضل العظيم لرفاقنا، في الحزب الاشتراكي الديمقراطي البولندي، أنهم حققوا تقدما لشعار الأممية، عندما قالوا: "نحن نعتز بالتحالف الأخوي للبروليتاريا في جميع البلدان أكثر من أي شيء آخر ويجب علينا الذهاب إلى الحرب بهدف تحرير بولندا". هذا هو فضلهم الكبير، ولهذا السبب يجب أن ننظر إلى الرفاق في الحزب الاشتراكي الديمقراطي كرفاق لنا. الآخرون، القوميون، فليسوا أكثر من بليخانوفيي بولندا. ولكن هذه الحالة الفريدة، والتي من أجل الحفاظ على الاشتراكية، وجدت ضرورة خوض معركة مسعورة، معركة تتسم بهوس قومي، فكان ذلك مثمرا لنا بشكل غريب: إذ جاء الرفاق يقولون لنا أنه علينا التخلي عن حرية بولندا، وعن حقها في الانفصال.

لماذا علينا، في روسيا العظمى، نحن الذين قمعنا عددا كبيرا من الشعوب، لماذا علينا التنصل من حق الانفصال عن بولندا وأوكرانيا وفنلندا؟.... الحزب الاشتراكي الديمقراطي البولندي يجد أن الاتحاد مع العمال في روسيا هو أمر مفيد، وذلك لأنهم يعارضون الانفصال عن بولندا. لديهم ملء الحق للقيام بذلك. ولكنهم لا يرغبون فهم أنه من أجل تعزيز الأممية ليس هناك حاجة لتكرار الكلمات نفسها، نحن في روسيا نؤكد على حق الدول الخاضعة بالانفصال، أما في بولندا يجب أن نصر على وحدة القوميات. الحق بهذه الوحدة يتضمن حقها بالانفصال. نحن كروس، يجب علينا التأكيد على الحق بالانفصال، وفي حين يجب على البولنديين التأكيد على حقهم في الوحدة" (٧).

يمكن تلخيص الفرق بين لينين ولوكسمبورغ حول المسألة الوطنية على الشكل التالي: في وقت تنطلق روزا من أن النضال ضد القومية البولندية، يميل إلى موقف عدمي من المسألة الوطنية، رأى لينين بشكل واقعي، اختلاف مواقف الأمم المقموعة والقامعة، وأن موقفهم من مسألة واحدة يجب أن يكون مختلفا. وهكذا، وبدءا من الحالات المختلفة من الآراء المتعارضة حول هذا الموضوع، فإنها تسير في اتجاهين متعاكسين للوصول إلى نفس النقطة لتحقيق الوحدة الأممية للعمال. ثانيا، في حين تتخلص روزا لوكسمبورغ من مسألة تقرير المصير، باعتبارها تتعارض مع الصراع الطبقي، يخضعها لينين إلى الصراع الطبقي (بنفس الطريقة التي يرى فيها كل المساعي الديمقراطية الأخرى كأسلحة في النضال الثوري العام). وتبعا لمقاربة لينين للمسألة الوطنية، ما تفتقده روزا لوكسمبورغ هو هذه الجدلية: التي تقوم على وحدة الأضداد في الاضطهاد الوطني، ومشاركة جزء- في النضال من أجل الاستقلال الوطني- بشكل عام- للنضال الأممي من أجل الاشتراكية.

قوة روزا لوكسمبورغ بشأن المسألة الوطنية تكمن، كما في أماكن أخرى، في تفانيها الكامل من أجل الأممية واستقلال الفكر. وأدى ذلك، تبعا لمنهج ماركس، إلى ملاحظتها لتغير بولندا بالنسبة إلى روسيا من أيام ماركس وصولا إلى زمنها. وهذا قادها، على العكس من ماركس، إلى معارضة النضال الوطني في بولندا، ولكن في الوقت عينه، ومرة أخرى خلافا لماركس وإنجلز، إلى دعم

الحركة الوطنية للسلافيين الجنوبيين ضد تركيا. ماركس وإنجلز اعتبرا أن وقف تقدم القيصرية على وحدة الإمبراطورية التركية أمر يجب الدفاع عنه، وينبغي معارضة الحركة الوطنية للسلافيين الجنوبيين، التي كانت سلاحا أعمى بيد القيصرية. روزا لوكسمبورغ قدمت تحليلا ممتازا للظروف الجديدة في البلقان منذ أيام ماركس. وقد استنتجت، بداية، أن تحرير دول البلقان المقموعة من قبل الأتراك سيحرض الأمم التي تشكل الإمبراطورية النمساوية- الهنغارية. نهاية الإمبراطورية التركية في أوروبا تعني أيضا نهاية إمبراطورية هابسبورغ. ثانيا، قالت أنه في زمن ماركس كانت الحركة الوطنية تحت سيطرة البرجوازية، وبالتالي فإن أي استمرار للتأثير الروسي هو فقط بفعل القمع التركي. إن تحرير شعوب البلقان من نير الإمبراطورية التركية لن يعزز نفوذ القيصرية، ولكن من شأن ذلك أن يؤدي إلى إضعافها، لأن هذه الشعوب ستكون تحت قيادة شابة برجوزاية تقدمية من شأنها أن تصطدم أكثر فأكثر مع القيصرية الرجعية. وبالتالي، في حالة البلقان، اختلف موقف روزا لوكسمبورغ كثيرا عن موقفها من بولندا.

استقلال فكر روزا لوكسمبورغ خففته مواقف لها، كما رأينا في بعض الأسئلة التي سبق وعالجناها، بسبب ميلها في بعض الأوقات إلى تعميم تجربتها الآنية على الحركة العمالية في أماكن أخرى.

—

الهوامش:

(1). K. Marx, The Communist Manifesto.

(2). Letter to Sorge, 27 September, 1877, Marx-Engels Correspondence (London, 1941), pp.348-349.

(3). Correspondence, p.399.

(4). Correspondence, p.399.

(5). Przeglad Socialdemokratyczny, 1908, No.6.

(6). Die Neue Zeit, 1895-96, p.466.

(7). V.I. Lenin, Selected Works, vol.V, pp.307-308.

تراكم رأس المال

خلال السنوات ١٩٠٦-١٩١٣، قدمت روزا لوكسمبورغ محاضرات حول الاقتصاد السياسي في مدرسة الحزب الاشتراكي الديمقراطي للمناضلين. عند قيامها بذلك حضرت كتابا حول الاقتصادية الماركسية عنونته "مقدمة في الاقتصاد السياسي". وعندما أوشكت على الانتهاء من مسودته الأساسية وجدت صعوبة غير متوقعة:

"لا يمكن أن أنجح في تصوير مجمل عملية الانتاج الرأسمالي في جميع علاقاتها العملية ومع حدودها التاريخية بالوضوح اللازم. إمعان النظر في المسألة ومن ثم إقناعي بأن السؤال هو أكثر من مجرد فن التمثيل، وأن المشكلة لا تزال بحاجة لحل مع ربطها بالمسألة النظرية الواردة في المجلد الثاني من كتاب كارل ماركس "رأس المال" وفي الوقت عينه مرتبطة في الأوقات الحالية مع السياسات الامبريالية وجذورها الاقتصادية".

بهذه الطريقة بدأت روزا لوكسمبورغ بكتابة عملها النظري الكبير: "تراكم رأس المال: مساهمة في التفسير الاقتصادي للامبريالية" (برلين، ١٩١٣). وهذا الكتاب ليست سهلة قراءته على الإطلاق، وخاصة لمن هو ليس ملما بكتاب رأس المال. في الوقت عينه، ومن دون شك، أن مساهمة روزا لوكسمبورغ، سواء وافقها المرء أم لا، هي واحدة من أهم، إذا لم تكن الأهم، المساهمات في النظرية الاقتصادية الماركسية منذ كتاب رأس المال.

وضع ماركس جانبا، خلال تحليله لقوانين الرأسمالية، كل العوامل غير الرأسمالية، تماما كما يقوم العالم خلال دراسته لقانون الجاذبية ضمن حالة من الفراغ.

المشكلة في تعاطي روزا لوكسمبورغ مع المسألة هي كما يلي: يمكن لعملية تجديد الانتاج الموسع، أي الانتاج على نحو متزايد، أن يتم ضمن ظروف مجردة، الرأسمالية النقية، حيث الدول غير الرأسمالية لا وجود لها، أو حيث حيث لا وجود لطبقات أخرى غير العمال والرأسماليين؟ افترض ماركس أنه يمكنه فعل ذلك. اعتبرت روزا لوكسمبورغ أن، بشكل عام، وبهدف تحليل الاقتصاد الرأسمالي، تجريد المسألة من عناصرها غير الرأسمالية له ما يبرره، ولكن ذلك ليس مبررا عند التعاطي مع مسألة تجديد الانتاج الموسع.

السؤال هو، بطبيعة الحال، نظري بحت، تماما كما هو حال الرأسمالية النقية غير الموجودة: بدأ تجديد الانتاج الموسع في وقت كانت الرأسمالية تغزو المجالات ما قبل الرأسمالية، سواء داخل الدول الرأسمالية نفسها- غزو الإقطاع وتدمير الفلاحين والحرفيين...- أو في البلدان الزراعية بشكل كامل والما قبل رأسمالية.

إذا كانت الرأسمالية النقية غير موجودة، يمكن للمرء أن يتساءل: ما هي أهمية مسألة ما إذا كان تجديد الانتاج الموسع ممكنا من الناحية النظرية داخل الرأسمالية النقية؟ بعد كل ذلك، لم يفترض لا

ماركس أو روزا لوكسمبوغ أن الرأسمالية ستستمر بالوجود حتى الإطاحة بكافة الأشكال الما قبل رأسمالية. ومع ذلك، الجواب على هذا السؤال يوضح تأثير المجال غير الرأسمالي على تزايد أو تناقص التناقضات داخل الرأسمالية، وعلى العوامل الدافعة للرأسمالية للتوسع الامبريالي.

لنبدأ بشرح وصف ماركس لمسار الانتاج في ظل الرأسمالي بشكل كامل.

بدأ ماركس مع تحليل لانتاج بسيط، أي على افتراض- بطبيعة الحال، لا يمكن أن نجده في ظل الرأسمالية- أنه لا يوجد تراكم لرأس المال، وأن كامل فائض القيمة ينفق على الاستهلاك الشخصي للرأسماليين، وبالتالي لا يتوسع الانتاج.

بالنسبة إلى الرأسمالي للاستمرار بانتاج بسيط لا بد من توفر بضعة شروط. يجب أن يكون قادرا على بيع انتاج مصنعه، وبالمال الذي يجنيه يشتري وسائل الانتاج (الآلات والمواد الأولية...) التي يحتاجها لصناعة معينة؛ كذلك عليه أن يحصل على قوة العمل التي يحتاجها من السوق، وكذلك وسائل الاستهلاك اللازمة كالطعام والثياب، وتوفير المستلزمات الأخرى للعمال. السلعة التي أنتجها العمال بمساعدة وسائل الانتاج يجب مرة أخرى أن تباع في السوق، وهكذا دواليك.

في حين ومن وجهة نظر الرأسمالي لا يوجد فرق بين ما ينتجه مصنعه، سواء أنتج الآلات أو الجوارب أو الصحف، شرط أن يعثر على مشترين لانتاجه حتى يتمكن من تحقيق رأس ماله بالإضافة إلى فائض القيمة. بالنسبة للاقتصاد الرأسمالي ككل من المهم للغاية أن يتكون مجمل الانتاج من قيمة استعمالية محددة، بعبارات أخرى، إجمالي الانتاج يجب أن يوفر وسائل الانتاج اللازمة لاستئناف عملية الانتاج ووسائل الانتاج التي يحتاجها العمال والرأسماليون. كمية الانتاج المختلف لا يمكن تحديدها بشكل اعتباطي: وسائل الانتاج المنتجة يجب أن تتساوى بقيمتها مع رأس المال الثابت (ك): وسائل الاستهلاك المنتجة يجب أن تتساوى بقيمتها مع فاتورة الأجور- رأس المال المتحرك (ف)- زائد فائض القيمة (س).

لتحليل تجديد الانتاج البسيط قسم ماركس الصناعة ككل إلى قسمين أساسيين: انتاج وسائل الانتاج (قسم ١) وانتاج وسائل الاستهلاك (قسم ٢). بين هذين القسمين يجب الحصول على تناسب معين عند حصول انتاج بسيط. ومن الواضح، على سبيل المثال، أنه إذا أنتج القسم ١ آلات أكثر من حاجته وحاجة القسم ٢، فالآلية تكون بذلك قد سببت فائضا بالانتاج، بالتالي انتاج القسم ١ سيصاب بالشلل، وستتبع ذلك سلسلة كاملة من الأحداث. بالمثل، إذا أنتج القسم ١ عددا قليلا من الآلات، سيتراجع الانتاج بدلا من تكرار نفسه على نفس المستوى. الأمر عينه ينطبق على القسم ٢ إذا أنتج أكثر أو أقل من وسائل الاستهلاك من مجموع فاتورة الأجور أو رأس المال المتحرك، وفائض القيمة (ف+س) في القسمين (١). التناسب بين الطلب على وسائل الانتاج والطلب على وسائل الاستهلاك في الاقتصاد ككل يعتمد على النسبة بين جزء من رأس المال المخصص لشراء الآلات والمواد الأولية،

أي على رأس المال الثابت (س) من مجمل الاقتصاد من جهة، وجزء من رأس المال الذي أنفق على الأجور (ف) زائد أرباح الرأسماليين في مجمل الاقتصاد.

بكلمات أخرى، يجب أن تكون منتجات القسم ١ (ب ١) متساوية مع رأس المال الثابت للقسم ١ (ك ١) زائد رأس المال الثابت للقسم ٢ (ك ٢):

ب ١= ك ١ + ك ٢

وبالمثل، يجب أن تكون منتجات القسم ٢ (ب ٢) مساوية للأجور وفائض القيمة في كل من القسمين مجتمعين:

ب ٢= ف ١ + س ١ + ف ٢ + س ٢

هاتان المعادلتان يمكن جمعهما ضمن معادلة واحدة:

ك ٢= ف ١+ س ١

بعبارات أخرى، يجب أن تكون قيمة الآلات والمواد الأولية... التي نحتاج إليها في القسم ٢ متساوية مع الأجور زائد فائض قيمة العمال والرأسماليين في القسم ١.

هذه المعادلات هي لتجديد الانتاج البسيط. أما معادلات تجديد الانتاج الموسع فهي أكثر تعقيدا. هنا جزء من فائض القيمة يتم إنفاقه على الاستهلاك الشخصي للرأسماليين الذي نرمز له بالحرف ر، أما الجزء المتراكم فنرمز له بالحرف أ. أ نفسه ينقسم إلى جزئين: الأول يخصص لشراء وسائل انتاج إضافية، أي ينفق بإضافته على رأس المال الثابت المتاح (أك)، والجزء الثاني يستعمل في دفع رواتب العمال المستخدمين حديثا في عملية الانتاج (أف).

إذا كان الطلب الاجتماعي على وسائل الانتاج في ظل تجديد انتاج بسيط قد تجسيده بموجب المعادلة التالية س ١ + س ٢، تجديد الانتاج الموسع سيتم التعبير عنه كالتالي: ك ١+ أك ١+ ك ٢+ أك ٢.

وبالمثل، فإن الطلب الاجتماعي على السلع الاستهلاكية يتغير من:

ف ١+ س ١+ ف ٢+ س ٢

ويصبح:

ف ١+ ر ١+ أف ١+ ف ٢+ ر ٢+ أف ٢

وبالتالي الظروف الضرورية للانتاج الموسع يمكن أن تكتب وفق المعادلة التالية:

ب ١= ك ١+ أك ١+ ك ٢+ أك ٢

ب ٢= ف١+ ر ١+ أف ١+ ف ٢+ ر ٢+ أف ٢

أو: ك ٢+ أك ٢= ف ١+ ر ١ + أف ١ (٢)

لنتناول الآن نقد روزا لوكسمبورغ لمخططات ماركس التوضيحية (٣). أظهرت روزا لوكسمبورغ أن المقارنة بين معادلة تجديد الانتاج البسيط مع معادلة تجديد الانتاج الموسع تظهر مفارقة. في حالة تجديد الانتاج البسيط ك ٢ يجب أن تتساوى مع ف ١ + س ١. في حالة تجديد الانتاج الموسع، ك ٢+ أك ٢ يجب أن تتساوى مع ف ١+ ر ١+ أف ١. لكن ف ١+ ر١ + أف ١ أقل من ف ١+ س١ (حيث خصمنا أك ١ من س ١). إذا تحقق التوازن في ظل ظروف تجديد الانتاج البسيط، الانتقال إلى تجديد الانتاج الموسع لا يتطلب فقط عدم تراكم في القسم ٢ إنما أيضا يتطلب تراجعا في التراكم.

وإنه ليس من قبيل المصادفة، تقول روزا، أنه عندما استعمل مخططات ماركس لتوضيح تجديد الانتاج الموسع، فقد استعمل رمزا أصغر لـ س٢ من ذاك الذي استعمله لتوضيح تجديد الانتاج البسيط.

نموذج توضيحي لإعادة انتاج بسيط:

١) ٤٠٠٠ك+ ١٠٠٠ف+ ١٠٠٠س= ٦٠٠٠

٢) ٢٠٠٠ك+ ٥٠٠ف+ ٥٠٠س= ٣٠٠٠

المجموع= ٩٠٠٠

نموذج توضيحي لتراكم على نطاق موسع:

١) ٤٠٠٠ك+ ١٠٠٠ف+ ١٠٠٠س= ٦٠٠٠

٢) ١٥٠٠ك+ ٧٥٠ف+ ٧٥٠س= ٣٠٠٠

المجموع= ٩٠٠٠ (٤)

وهكذا فإن رأس المال الثابت في القسم الثاني أقل بـ ٥٠٠ في تجديد الانتاج الموسع نسبة إلى تجديد الانتاج البسيط.

يبلور ماركس مخططا توضيحيا لتجديد الانتاج الموسع مظهرا أن، وعلى افتراض أنه في القسم ١ وكذلك في القسم ٢ لا يتغير في التكوين العضوي لرأس المال (أي نسبة رأس المال الثابت إلى رأس المال المتغير)، معدل الاستغلال يبقى ثابتا، ويتم رسملة نصف فائض القيمة في القسم ١، من ثم إعادة انتاج رأس المال تؤدي إلى التطور التالي:

السنة الأولى:

١) ٤٤٠٠ك+ ١١٠٠ف+ ١١٠٠س= ٦٦٠٠

٢) ١٦٠٠ك+ ٨٠٠ف+ ٨٠٠س= ٣٢٠٠

المجموع= ٩٨٠٠

السنة الثانية:

١) ٤٨٠٠ك+ ١٢١٠ف+ ١٢١٠س= ٧٢٦٠

٢) ١٧٦٠ك+ ٨٨٠ف+ ٨٨٠س= ٣٥٢٠

المجموع= ١٠٧٨٠

السنة الثالثة:

١) ٥٣٢٤ك+ ١٣٣١ف+ ١٣٣١س= ٧٩٨٦

٢) ١٩٣٦ك+ ٩٦٨ف + ٩٦٨س= ٣٨٧٢

المجموع= ١١٨٥٨

السنة الرابعة:

١) ٥٨٥٦ك+ ١٤٦٤ف+ ١٤٦٤س= ٧٩٨٦

٢) ٢١٢٩ك+ ١٠٦٥ف+ ١٠٦٥س= ٤٢٥٩

المجموع= ١٣٠٤٣

السنة الخامسة:

١) ٦٤٤٢ك + ١٦١٠ف+ ١٦١٠س= ٩٦٦٢

٢) ٢٣٤٢ك+ ١١٧٢ف+ ١١٧٢س= ٤٦٨٦

المجموع= ١٤٣٤٨ (٥)

بتحليل المخطط التوضيحي أعلاه، تشير روزا لوكسمبورغ إلى نقطة أساسية يظهرها:

"في حين القسم ١ يرسمل نصف فائض القيمة كل مرة، والنصف الثاني يتم استهلاكه، إذاً حتى يحصل توسعا للانتاج والاستهلاك الشخصي من الرأسماليين، العملية ذات الشقين في القسم ٢ تأخذ مسارا غير منتظم كالتالي:

السنة الأولى: ١٥٠ تم رسملتها، و٦٠٠ تم استهلاكها

في السنة الثانية: ٢٤٠، ٦٦٠

في السنة الثالثة: ٢٥٤، ٦٢٦

في السنة الرابعة: ٢٩٠، ٦٧٨

في السنة الخامسة: ٣٢٠، ٧٤٥".

وتضيف:

"وغني عن القول، إن الأرقام المطلقة في المثل هي اعتباطية في كل معادلة، ولكن هذا لا ينتقص من قيمتها العلمية. والنسب الكمية ذات صلة، منذ جرى افتراضها لتعبر عن علاقات حاسمة بدقة. تلك القواعد المنطقية الدقيقة التي ترسي علاقات التراكم في القسم ١ تبدو أنها تحققت على حساب أي نوع تفسير لهذه العلاقات في القسم ٢؛ وهذا الأمر يستدعي إعادة النظر في الروابط الجوهرية التي كشفها هذا التحليل (٦).

هنا لا يوجد قاعدة للدلالة على التراكم والاستهلاك لاتباعها؛ وكلاهما يخضعان كليا لمتطلبات تراكم القسم ١" (٧).

وفيما يتعلق بالتقدم المحرز في عملية تجديد الانتاج الموسع، إذا افترضنا أنه في القسم ٢ وكذلك القسم ١ حصل توسعا منظما لكل من تراكم رأس المال والاستهلاك الشخصي للرأسماليين، سيتزايد إثر ذلك الاختلال بين القسمين.

لذا، أظهرت روزا لوكسمبورغ بوضوح أنه إذا كانت القواعد المنطقية الموضوعة قد أدت إلى علاقات تراكم في القسم ١، يبدو أن هذه القواعد قد "تم اكتسابها على حساب أي نوع من مبدأ في بناء هذه العلاقات في القسم ٢"؛ أو بطريقة أخرى، إذا تم تطبيق نفس القواعد المنطقية لعلاقات تراكم في القسم ٢ كتلك المطبقة في القسم ١، اختلال التوازن بشكل فائض الانتاج في القسم ٢ سيظهر وينمو بشكل تدريجي.

سيكون الآن الأمر سهلا لنظهر، على افتراض أن نقطة الانطلاق لتجديد الانتاج الموسع هو أن رأس المال الثابت في القسم ٢ لم يكن أقل بـ ٥٠٠ من تجديد الانتاج البسيط، وجود اختلال في التوازن بين القسم ١ والقسم ٢: طلب القسم ١ لوسائل الاستهلاك كان أقل بـ ٥٠٠ في بداية العملية نسبة إلى

العرض المتاح في القسم ٢ من وسائل الاستهلاك المراد تصريفها: سيكون هناك فائض بالانتاج من السلع الاستهلاكية بقيمة ٥٠٠ في بداية عملية تجديد الانتاج الموسع.

لو لم تجرد روزا لوكسمبورغ عددا من العوامل، مثل ارتفاع معدل الاستغلال وارتفاع في التكوين العضوي لرأس المال، فإن حجتها ستكون أقوى. من السهل إثبات أنه عندما يرتفع معدل الاستغلال، وكذلك معدل فائض القيمة إلى الأجور آخذ في الارتفاع (س/ف)، الطلب النسبي على السلع الاستهلاكي مقابل السلع الانتاجية سينخفض، وبالتالي إما معدل التراكم في القسم ٢ سيكون خاطئا في مخططات ماركس التوضيحية، أو أن تزايدا في فائض القيمة سيظهر في القسم ٢. أي ارتفاع في جزء من فائض القيمة المتراكمة سيتحرك بالاتجاه نفسه، كذلك أي نمو عضوي لرأس المال.

الاتجاهات الثلاثة المذكورة أعلاه- ارتفاع معدل الاستغلال، ارتفاع معدل التراكم وارتفاع التكوين العضوي لرأس المال- يعتبرها ماركس العوامل المطلقة والجوهرية لقوانين الرأسمالية.

لو تم أخذ ذلك بعين الاعتبار، أي في ظل رأسمالية نقية سيكون الاختلال الاقتصادي ظاهرة دائمة مطلقة ولا يمكن تجنبه، سيكون رأي روزا لوكسمبورغ معززا بقوة.

ومع ذلك، هناك عامل مهم يمكن أن يلغي كل العوامل المذكورة أعلاه وهو ملازم لها: ارتفاع الوزن النسبي للقسم ١ مقارنة مع القسم ٢. ازدياد في التكوين العضوي لرأس المال، وتحسين التقنيات، ارتبطا تاريخيا ومنطقيا بازدياد القسم ١ مقارنة مع القسم ٢. وهكذا يتم احتساب نسبة الناتج الصافي من السلع الرأسمالية إلى تلك السلع الاستهلاكية في بريطانيا على الشكل التالي:

عام ١٨٥١: ٤٧٠/١٠٠؛ عام ١٨٧١: ٣٩٠/١٠٠؛ عام ١٩٠١: ١٧٠/١٠٠؛ عام ١٩٢٤: ١٥٠/١٠٠

وكانت الأرقام في الولايات المتحدة على الشكل التالي:

عام ١٨٥٠: ٢٤٠/١٠٠؛ عام ١٨٩٠: ١٥٠/١٠٠؛ عام ١٩٢٠: ٨٠/١٠٠

أما في اليابان:

عام ١٩٠٠: ٤٨٠/١٠٠؛ عام ١٩١٣: ٢٧٠/١٠٠؛ عام ١٩٢٥: ٢٤٠/١٠٠ (٨)

لإظهار أن الازدياد في القسم ١ مقارنة مع القسم ٢ يصد العوامل التي ذكرتها روزا لوكسمبورغ (كذلك تلك التي أضافها هذا الكاتب لتعزيز حجة روزا لوكسمبورغ حيال فائض الانتاج في القسم ٢)، لا بد من إعطاء بعض المخططات التوضيحية لتأثير تغير الوزن النسبي للقسم ١ على القسم ٢ على علاقة التبادل بين القسمين.

رأس المال المستثمر في القسم ١ يمكن أن ينمو مقارنة مع القسم ٢ بطريقتين:

١) من خلال وجود نسبة أعلى من التراكم في القسم ١ نسبة إلى القسم ٢؛

٢) من خلال انتقال رأس المال من القسم ٢ إلى القسم ١.

يجب أن نعطي مثلا توضيحيا لكل من هاتين العمليتين.

لنفترض أن معدل التراكم في القسم ١ هو أعلى من ذلك في القسم ٢، على سبيل المثال، نصف فائض القيمة في القسم ١ مقارنة مع الثلث فقط في القسم ٢. سنفترض أيضا أن العوامل الأخرى (معدل الاستغلال بنسبة ١٠٠ بالمئة، والتركيب العضوي لرأس المال الثابت هو خمس مرات أكبر من رأس المال المتغير) لم تتغير. ومن ثم، باستخدام مخطط ماركس التوضيحي المذكور أعلاه كنقطة انطلاق، فإن إعادة انتاج رأس المال سيتحقق وفق التطور التالي (جرى تدوير الأرقام لتسهيل القراءة) (٩):

نقطة الانطلاق:

١) ٥٠٠٠ك + ١٠٠٠ف + ١٠٠٠س= ٧٠٠٠

٢) ١٥٠٠ك + ٣٠٠ف + ٣٠٠س= ٢١٠٠

نهاية أول عام:

١) ٥٠٠٠ك + ١٠٠٠ف + ٥٠٠ر+ ٤١٧أك+ ٨٣أف= ٧٠٠٠

٢) ١٥٠٠ك + ٣٠٠ف + ٢٠٠ر + ٨٠أك + ٢٠أف= ٢١٠٠

ك٢ + أك٢= ١٥٨٠

في حين: ف١ + ر١ + أف١= ١٥٨٣

وهكذا في نهاية العام الأول، وبدلا من وجود فائض في القسم ٢ كما افترضت روزا لوكسمبورغ، يظهر فائضا في القسم ١ يصل إلى ٣.

في نهاية العام الثاني:

١) ٥٤١٧ك + ١٠٨٣ف + ٥٤١ر + ٤٥٠أك + ٩٠أف= ٧٥٨٣

٢) ١٥٨٠ك + ٣٢٠ف + ٢١٣ر + ٩٠أك + ١٨أف= ٢٢٢٠

ك٢+ أك٢= ١٦٧٠

بينما ف١ + ر١ + أف١= ١٧١٤. الفائض في القسم ١ أصبح الآن ٤٤

في نهاية السنة الثالثة:

١) ٥٨٦٧ك + ١١٧٣ف + ٥٨٦ر + ٤٨٩أك + ٩٨أف= ٨٢١٣

٢) ١٦٧٠ك + ٣٣٨ف + ٢٢٥ر + ٩٤أك + ١٩أف= ٢٣٤٦

ك٢+ أك٢= ١٧٦٤

في حين ف١+ ر١ + أف١= ١٨٥٧. وبذلك أصبح الفائض في القسم ١ ٩٣.

وفق المخططات التوضيحية الواردة أعلاه، من الواضح أنه أذا افترضنا أن معدلي الاستغلال والتركيب العضوي لرأس المال لم يتغيرا، في حين أن معدل التراكم في القسم ١ هو أعلى من القسم ٢، بذلك يظهر الفائض في القسم ١ (١٠).

وكما قلنا سابقا، القسم ١ يمكن أن يزداد نسبيا إلى القسم ٢ أيضا عبر نقل فائض القيمة من القسم ٢ إلى القسم ١. دعونا نوضح هذه العملية. سنفترض أن معدل الاستغلال، والتركيب العضوي لرأس المال ومعدل التراكم هو نفسه في القسمين ولم يتغيرا. وفي الوقت عينه، يجب أن نفترض أن نصف فائض القيمة المنتج في القسم ٢ قد جرى نقله إلى القسم ١.

تقدم تجديد الانتاج الموسع يمكن وصفه وفق المخططات التوضيحية التالية:

نقطة الانطلاق:

١) ٥٠٠٠ك + ١٠٠٠ف + ١٠٠٠س= ٧٠٠٠

٢) ١٥٠٠ك + ٣٠٠ف + ٣٠٠س= ٢١٠٠

في نهاية العام الأول:

١) ٥٠٠٠ك + ١٠٠٠ف + ٥٠٠ر + ٤١٧أك + ٨٣أف= ٧٠٠٠

٢) ١٥٠٠ك + ٣٠٠ف + ١٥٠ر + ٦٣أك + ١٢أف + (فائض القيمة المنقول إلى القسم ١: ٦٣أك+ ١٢أف)= ٢١٠٠

ك٢ + أك٢= ١٥٦٣

في حين ف١+ ر١+ أف١ + (أف المنقول إلى القسم ٢)= ١٥٩٥

وهكذا في نهاية السنة الأولى، بدلا من حصول فائض في القسم ٢ كما افترضت روزا لوكسمبورغ، وجدنا حصول فائض في الانتاج في القسم ١ يصل إلى ٣٢.

في نهاية السنة الثانية:

١) ٥٨٤٠ك + ١٠٩٥ف + ٥٤٧ر + ٤٥٥أك + ٩١أف= ٧٦٧٠

٢) ١٥٦٣ك + ٣١٢ف + ١٥٦ر + ٦٥أك + ١٣أف+ (فائض القيمة المنقول إلى القسم ١: ٦٥أك + ١٣أف)= ٢١٨٧

ك٢ + أك٢= ١٦٢٨

في حين ف١ + ر١ + أف١ + (أف المنقول من القسم ٢)= ١٧٤٦

فائض القيمة في القسم ١ هو ١١٨

في نهاية السنة الثالثة:

١) ٦٠٠٠ك + ١٢٠٠ف + ٦٠٠ر + ٥٠٠أك + ١٠٠أف= ٨٤٠٠

٢) ١٦٢٨ك + ٣٢٥ف + ١٦٢ر + ٦٧أك + ١٤أف + (فائض القيمة المنقول إلى القسم ١: ٦٧أك + ١٤أف)= ٢٢٧٨

ك٢+ أك٢= ١٦٩٥

في حين ف١ + ر١ + أف١ + (أف المنقول من القسم ٢)= ١٩١٤

فائض القيمة في القسم ١ هو ٢١٩

الآن تحاجج روزا لوكسمبورغ ضد هذه الفكرة أن نقل فائض القيمة من قسم إلى آخر يمكن أن يساعد على تحقيق توازن التبادل بين القسمين، قول ذلك "النقل المقصود من فائض القيمة المرسلة من القسم ٢ إلى القسم ١ مستبعدة، أولا لأن النموذج المادي لفائض القيمة لا فائدة منه بالنسبة إلى القسم ١، وثانيا لأن العلاقات التبادلية بين القسمين تتطلب نقل ما يعادلها من السلع من القسم ١ إلى القسم ٢" (١١). بعبارات أخرى، تعتبر روزا لوكسمبورغ أن مخطط ماركس التوضيحي يقوم على افتراض أن تحقيق فائض القيمة لا يمكن أن يحصل إلا عبر تبادل بين الأقسام، وثانيا أن الفائض المفترض في القسم ٢ سيأخذ شكلا طبيعيا، أي سيبقى كوسيلة استهلاك، ولا يمكن أن ينفع مباشرة كوسيلة انتاج. تسقط الحجة الأولى من خلال النظر إلى واقع أن التبادل بين الشركات ضمن القسم نفسه يمكم أن يخدم تحقيق فائض القيمة: عندما يبيع صاحب مصنع قبعات انتاجه لعمال ينتجون البسكويت، فإنه يحقق فائض القيمة الذي أنتجه عماله. ثانيا، يمكن لكثير من السلع الاستهلاكية أن تكون أيضا بمثابة وسائل انتاج: إذا بنى مقاول مصنعا بدلا من شقة، هذا يعني انتقال رأس المال من القسم ٢ إلى القسم ١؛ يمكن للكهرباء أن تستخدم لإضاءة الشقق كما أن تستخدم لتشغيل الآلات؛

ويمكن للحبوب أن تطعم البشر (استهلاك) وأن تطعم الخنازير (استهلاك انتاجي) إلخ. ثالثا، من دون إمكانية انتقال رأس المال من قسم إلى آخر، الفرضية التي تقول أن معدل الربح في كل مكان من الاقتصاد يميل إلى المساواة، والتي هي أساس النظرية الاقتصادية الماركسية، تفقد أساسها.

من المخططات التوضيحية الواردة أعلاه يتضح أن الزيادة النسبية للقسم ١ مقارنة مع القسم ٢، إذا بقيت بقية الشروط على حالها، تؤدي عقب ذلك إلى فوائض في علاقات التبادل في القسم ١.

هل يمكن لهذا العامل ألا يتعارض مع ذلك الذي أشارت إليه روزا لوكسمبورغ بأنه سبب الفائض في القسم ٢؟ هل العوامل المتعارضة المختلفة ليست في الواقع سوى وجهين لعملة واحدة، تطور الاقتصاد الرأسمالي؟ بالطبع إنه كذلك.

توصلت روزا لوكسمبورغ إلى خلاصة مفادها أنه يجب أن يظهر وجود فائض في القسم ٢ لأنها أعطت اهتماما لجانب واحد فقط من العملة. النظر إليها من الجهتين، من الواضح أنه في ظل رأسمالية نقية يمكن أن يتحقق التناسب بين القسمين، في وقت يكون التراكم فيهما منتظما.

مع ذلك، الاحتمال النظري للحفاظ على تناسبية صحيحة بين القسمين، والذي سيمنع الانتاج الزائد من خلال التبادل البيني بينهما في وقت يمضي التراكم قدما بشكل متساو، لا يعني أنه في الحياة الفعلية العمل الفوضوي والمتناهي الصغر للرأسمالية يؤدي إلى استقرار واستمرار التناسبية المطلوبة. وهذا العامل الذي أشارت إليه روزا لوكسمبورغ- وجود أشكال غير رأسمالية تتوسع إليها الرأسمالية- هو أمر بالغ الأهمية. إذا لم يكن شرطا مسبقا لتجديد الانتاج الموسع كما اعتبرت روزا لوكسمبورغ، إنه، على الأقل، عامل يخفف عملية تجديد الانتاج الموسع، للتراكم، من خلال جعل الاعتماد المتبادل أقل من مطلق. ولكن لا يمكن للمرء إلا أن يتفق مع روزا لوكسمبورغ عندما تقول "التراكم أكثر من علاقة داخلية بين فروع الاقتصاد الرأسمالي"؛ كنتيجة للعلاقة بين الظروف الرأسمالية وغير الرأسمالية:

"القسمان الكبيران للانتاج في بعض الأحيان يجريان عملية تراكمية بشكل مستقل عن بعضهما البعض، ولكن حتى حينها في كل خطوة تتداخل الحركات وتتقاطع. من هذا المنطلق نستطيع الحصول على علاقات أكثر تعقيدا، اختلاف بالسرعة واتجاه التراكم للقسمين، علاقات مختلفة مع أشكال الانتاج غير الرأسمالية سواء من ناحية العناصر المادية وعناصر القيمة" (١٢).

كما هو واقع الحال، عدد من العوامل المحددة إما لشكل من التناسبية بين القسمين المؤدية إلى التوازن أو ليست عديدة ومتناقضة (معدل الاستغلال، ومعدل التراكم في مختلف الصناعات، والتغيرات في التكوين العضوي لرأس المال في الصناعات المختلفة...) وما إن يخرج الاقتصاد من حالة التوازن، ما كان تناسبا يتحول إلى حالة من انعدام التناسب ويكون لذلك تأثير كرة الثلج. ومن ثم

التبادل بين الصناعة الرأسمالية والمجال غير الرأسمالي، حتى لو كان صغيرا من حيث قيمته المطلقة، يمكن أن يؤثر تأثيرا هائلا على مرونة، وبالتالي استقرار، الرأسمالية.

تحلل روزا لوكسمبورغ مرارا وتكرارا في كتابها أمثلة حول تجديد الانتاج- حيث تصف علاقات التبادل بين قسمي الصناعة- ومجموعة أخرى من العلاقات بين القسمين: إمكانية أن تصبح وسائل الانتاج وسائل للاستهلاك- وسائل الانتاج لا يتم تبادلها فقط بوسائل استهلاك، ولكن في الوقت الراهن يتم تحقيقها ضمن وسائل جديدة للاستهلاك. التناسبية التي عبر عنها ماركس في مخططاته التوضيحية هي الشروط التي من دونها لا يمكن تحقيق التراكم؛ ولكن من أجل تحقيق هذا التراكم يجب في الواقع أن يكون هناك طلبا موسعا ومتزايدا للسلع الأساسية، والسؤال الذي يطرح نفسه هو: من أين يأتي هذا الطلب؟

يعتمد الازدهار الرأسمالي على زيادة في الانتاج وامتصاص السلع الرأسمالية. ولكن هذا يعتمد في التحليل الأخير على قدرة الصناعة على بيع الانتاج المتزايد من السلع الاستهلاكية. ومع ذلك، في محاولة بيع منتجاتها، تدخل الصناعة الرأسمالية في تناقضات عميقة، التناقض الأساسي هو بين الانتاج والسوق المحدود: "السبب الأخير لكل الأزمات الحقيقية يبقى دائما الفقر واستهلاك الجماهير المحدود مقارنة مع ميل الانتاج الرأسمالي إلى تطوير القوى المنتجة بشكل أنها وحدها السلطة المطلقة للاستهلاك للمجتمع بأسره ستكون حدودها" (١٣).

اعتبرت روزا لوكسمبورغ أن العامل الذي يسمح للرأسمالية للابتعاد عن العائق المطلق للتراكم في السوق المحدود هو دخول الصناعة الرأسمالية في الأقاليم غير الرأسمالية (١٤).

روزا لوكسمبورغ، أكثر من أي اقتصادي ماركسي أو غير ماركسي، لفتت الانتباه لتأثير الحدود غير الرأسمالية على الرأسمالية. الارتكاز على هذا العامل- حتى لو أنها لم تطور كل العواقب الرئيسية لذلك- يمكن للمرء أن يحاول تلخيص تأثير توسع الرأسمالية في الأقاليم غير الرأسمالية على النحو التالي:

١) أسواق الدول المستعمرة المتأخرة، من خلال زيادة الطلب على السلع من الدول الصناعية، يضعف الميل لفائض الانتاج فيها، ويقل عدد جيش العاطلين عن العمل، وذلك يحدث تحسنا في أجور العمال في البلدان الصناعية.

٢) الزيادة في الأجور الناجم عن ذلك له تأثير تراكمي. عن طريق زيادة السوق الداخلي في البلدان الصناعية، ويضعف ميل فائض الانتاج، وتنخفض البطالة، وترتفع الأجور.

٣) تصدير رأس المال يزيد من ازدهار الدول الصناعية لأن ذلك يخلق سوقا لسلعها- على الأقل بشكل مؤقت. تصدير السلع القطنية من بريطانيا إلى الهند يفترض أن الهند قادرة على دفع ثمنها فورا، من خلال تصدير القطن، على سبيل المثال. من ناحية أخرى، تصدير رأس المال لبناء خط

سكة حديد يفترض تصدير السلع- القضبان والقاطرات...- بعيدا عن القدرة الشرائية الفورية أو القوة التصديرية في الهند. بعبارات أخرى، لفترة من الزمن تصدير رأس المال هو عامل مهم في توسيع الأسواق لصناعات الدول المتقدمة. غير أنه، ومع مرور الوقت يتحول هذا العامل إلى نقيضه: ما إن يتم تصدير رأس المال حتى يكبح تصدير البضائع من البلاد "الأم" بعد بدء الدول المستعمرة بدفع الأرباح أو الفوائد عليها. بهدف دفع أرباح ١٠ مليون جنيه استرليني لبريطانيا (على رأس المال البريطاني المستثمر في الهند) على الهند أن تستورد أقل مما تصدر، وبالتالي لتوفير المال اللازم لتغطية الـ ١٠ مليون جنيه استرليني. بعبارات أخرى، إن تصدير رأس المال من بريطانيا إلى الهند يوسع السوق للسلع البريطانية؛ دفع الفوائد والأرباح على رأس المال البريطاني في الهند يقيد أسواق السلع البريطانية. وبالتالي الاستثمارات العظيمة لرأس المال البريطاني في الخارج لا يمنع من فائض الانتاج وارتفاع معدلات البطالة في بريطانيا. على العكس من وجهة نظر لينين، الربح العالي من رأس المال المستثمر في الخارج قد لا يرافقه ازدهارا واستقرارا في الدول الامبريالية، إنما يشكل عاملا للبطالة الواسعة والكساد.

٤) تصدير رأس المال إلى المستعمرات يؤثر على مجمل سوق رأس المال في الدول الامبريالية. حتى لو كان فائض رأس المال يبحث عبثا عن استثمار مبلغ صغير، يمكن لتأثيره التراكمي أن يكون هائلا، لأنه خلق ضغطا في أسواق رأس المال، وعزز الاتجاه الانحداري لمعدل الربح. وهذا من شأنه أن يكون له تأثيرا تراكميا بشكل تلقائي على نشاط رأس المال، وعلى النشاط الاقتصادي ككل، وعلى العمالة، وكذلك على القدرة الشرائية للجماهير، وذلك مرة إضافية ضمن حلقة مفرغة على الأسواق. تصدير فائض رأس المال قد يؤدي إلى تفادي هذه الصعوبات وبالتالي يمكن أن يكون له أهمية كبيرة على كامل الازدهار الرأسمالي، وبالتالي على الإصلاح.

٥) وبتخفيف الضغط في أسواق رأس المال يقلل تصدير رأس المال من المنافسة بين الشركات المختلفة، وذلك يقلل من الحاجة إلى ترشيد وتحديث معداتها. (هذا الأمر يفسر بالنسبة للبعض حالة التخلف التقني للصناعة البريطانية، رائدة الثورة الصناعية، مقارنة مع ألمانيا اليوم، على سبيل المثال). وهذا ما يضعف الميول إلى الفائض في الانتاج والبطالة، وخفض الأجور.... (بالطبع، في ظل ظروف متغيرة، حيث بريطانيا لم تعد تحتكر العالم الصناعي، هذا العامل قد يسبب أيضا هزيمة الصناعة البريطانية في السوق العالمية والبطالة وانخفاض في الأجور).

٦) شراء المواد الأولية والغذائية الرخيصة من المستعمرات يسمح بزيادة الأجور الحقيقية في البلاد الصناعية دون أي اقتطاع من معدل الربح. هذه الزيادة في الأجور تعني اتساع الأسواق المحلية دون حدوث انخفاض في معدل ومقدار الربح، وبعبارة أخرى، دون إضعاف الدافع للانتاج الرأسمالي.

٧) الفترة التي تخدم الدول المستعمرة لتوسيع الأسواق للدول الصناعية لن تطول نسبة إلى:

أ. حجم العالم الاستعماري بالمقارنة مع الطاقة الانتاجية للدول الصناعية المتقدمة.

ب. المدى المؤجل لتصنيع ما سلف.

٨) جميع الآثار المفيدة للامبريالية على الازدهار الرأسمالي ستختفي إذا لم يكن هناك من حدود وطنية بين الدول الامبريالية الصناعية ومستعمراتها. تصدر بريطانيا السلع ورؤوس الأموال إلى الهند وتستورد المواد الأولية والغذائية الرخيصة، لكنها لم تسمح للعاطلين عن العمل في الهند- المتزايدين بسبب الغزو الرأسمالي البريطاني- من الدخول إلى سوق العمل في بريطانيا. لو لم ينصب الحاجز (المالي) أمام الهجرة الهندية الجماعية إلى الهند، لم تكن الأجور لترتفع خلال القرن الماضي. أزمة الرأسمالية ستتعمق أكثر فأكثر. والإصلاح لن يقدر على الحلول مكان الشارتية الثورية (١٥).

يمكن للمرء أن يتفق أو يختلف مع نقد روزا لوكسمبورغ لمخططات ماركس التوضيحية في المجلد الثاني من رأس المال، ومع بعض أو كل سلسلة الأفكار التي قادتها إلى استنتاج نهائي أنه إذا لم يكن نمط الانتاج الرأسمالي فقط المهيمن إنما الوحيد لكانت الرأسمالية في فترة زمنية قصيرة انهارت بسبب تناقضاتها الداخلية. أيا يكن ما يفكر به المرء، لا يستطيع التشكيك في الخدمة الكبيرة لروزا لوكسمبورغ في لفت الانتباه إلى تأثير المجالات غير الرأسمالية على استقرار الرأسمالية. وكما قال البروفيسور جوان روبنسون في مقدمة الطبعة الانكليزية من كتاب تراكم رأس المال: "... قلة تستطيع إنكار أن التوسع الرأسمالي إلى أراض جديدة كان المحرك الأساسي لما يسميه أحد الخبراء الاقتصاديين "أوسع طفرة مدنية" خلال الـ ٢٠٠ سنة الأخيرة، ويعتبر العديد من الأكاديميين الاقتصاديين أن حالة عدم الاستقرار للرأسمالية في القرن العشرين تعود إلى حد كبير إلى "إغلاق الحدود" في جميع أنحاء العالم" (١٦). جوان روبنسون يمزج في الثناء لتحليل روزا لوكسمبورغ مع نقد لما تجاهلته روزا أي ارتفاع الأجور الحقيقية الذي حصل في جميع أنحاء العالم الرأسمالي- عامل لتوسع السوق- وبالتالي قدمت صورة غير كاملة. ومع ذلك، وحتى لو أن روزا لوكسمبورغ لم تشمل هذه العوامل في تحليلها- والخارجة عن الخط الأساسي لحجتها حول إمكانية أو عدم استحالة تجديد الانتاج في رأسمالية نقية- لا يستطيع المرء تفسير الزيادة في الأجور الحقيقية بشكل مستقل عن السمة الرئيسية التي أشارت إليها روزا لوكسمبورغ: توسع الرأسمالية إلى المجال غير الرأسمالي (١٧).

—

الهوامش:

(١) في الواقع، ما هو مطلوب لانتاج مريح لا يقتصر على تناسب معين بين انتاج القسم ١ وانتاج القسم ٢ في الاقتصاد ككل، إنما على التناسب بين الفروع المحافظ عليه في كل الاقتصاد. وهكذا، على سبيل المثال، إن انتاج آليات انتاج الملابس في القسم ١ تحتاج لتتناسب مع الطلب على هذا النوع من الآلات في صناعة الملابس في القسم ٢.

(٢) هذه المعادلات، والتي هي معادلات جبرية من تحليل ماركس في الجزء الثاني من كتاب رأس المال صاغهم ن. بوخارين في كتابه Der Imperialismus und die Akkumulation Des Kapitals (Berlin، ١٩٢٥) ونجدهم مفيدين جدا لتلخيص الكثير من مخططات ماركس التوضيحية.

(٣) قبل شرح تحليل روزا لوكسمبورغ لتجديد الانتاج، يجب أن يكون واضحا أنها لم تطور نظرية تشرح الحركة الدورية للازدهار والأزمات والركود. اعتقدت أن الدورات هي مراحل تجديد الانتاج في اقتصاد رأسمالي، وليست مجمل العملية. لذلك، قالت إنها تستخلص تحليلها من الدورات بهدف دراسة تجديد الانتاج بشكل نقي وبشكل إجمالي. وكما كتبت: "... على الرغم من الارتفاعات والانهيارات الحادة في سياق دورة، وعلى الرغم من الأزمات، يتم تلبية احتياجات المجتمع دائما إلى هذا الحد أو ذاك، وتجديد الانتاج يستمر في مساره المعقد، والقدرات الانتاجية تتطور بشكل تدريجي. كيف يمكن لهذا أن يحصل، واضعين جانبا الدورات والأزمات؟ هنا يبدأ السؤال الحقيقي... عندما نتكلم عن تجديد الانتاج الرأسمالي في العرض التالي، يجب أن نفهم دائما من هذا المصطلح أن حجم الانتاجية الذي هو معدل نعتمده فوق مراحل مختلفة من دورة". R. Luxemburg, The Accumulation of Capital (London, 1951), pp.٣٦-٣٧.

(4) K. Marx, Capital, vol.II, p.596.

(5) K. Marx, Capital, vol.II, pp.598-600.

(6) R. Luxemburg, Accumulation, p.122.

(7) R. Luxemburg, Accumulation, p.122.

(8) W.S. and E.S. Woytinsky, World Population and Production (New York, 1953), pp.415-416.

(٩) الملاحظة من المحرر: يتجاهل توني كليف الأصفار عند تحديد أرقام أجزاء القيمة، وبالتالي فإن المجموع صحيح حتى عندما لا تظهر الأجزاء.

(١٠) حجة روزا لوكسمبورغ على العكس من هذه الفكرة تماما: ارتفاع معدل التراكم في القسم ١ بالنسبة إلى القسم ٢ (R. Luxemburg, Accumulation, pp.٣٣٨-٣٣٩) هو خاطئ تماما. وليس لدينا المساحة الكافية للرد على ذلك. على القارئ/ة الرجوع إلى المصدر.

(11) R. Luxemburg, Accumulation, pp.340-341.

(12) R. Luxemburg, Accumulation, p.417.

(13) K. Marx, Capital, vol.III, p.568.

(١٤) جاء رد "ماركسي" آخر على هذه المعضلة الرأسمالية من أوتو باور في نقده لكتاب روزا لوكسمبورغ. مستخدما مخططات توضيحية أكثر تعقيدا لتجديد الانتاج من تلك التي استعملها ماركس أو روزا لوكسمبورغ، حاول إثبات أن "تراكم رأس المال يتكيف مع زيادة عدد السكان... الدائرة الدورية من الازدهار والأزمات والركود هي تعبير عملي لحقيقة أن جهاز الانتاج الرأسمالي يتغلب بتراكم كبير جدا أو قليل جدا عن طريق تكيف جديد لتراكم رأس المال نسبة إلى زيادة عدد السكان" (Die Neue Zeit, 1913, p.٨٧١). هذا القول ليس من أحد تلامذة مالتوس، إنما ماركس، الذي بالنسبة إليه العامل الأساسي لا ينبغي أن يكون بالزيادة السكانية إنما تراكم رأس المال!

(١٥) بالمناسبة، الشاري "الثالث"- ليس العامل أو المستهلك الرأسمالي- وليس بالضرورة أن يكون المنتج غير الرأسمالي، إنما الدولة غير المنتجة؛ وبالتالي يمكن لاقتصاد حرب دائم، أو على الأقل لفترة من الزمن، أن يكون له تأثيرا على الازدهار الرأسمالي كما في المجال الاقتصادي غير الرأسمالي. (See T. Cliff, Perspectives of the Permanent War Economy, Socialist Review, May ١٩٥٧).

(16) R. Luxemburg, Accumulation, p.28.

(١٧) ارتكبت روزا لوكسمبورغ في حجتها عددا من الأخطاء الجانبية التي تم اكتشافها لاحقا من قبل ن. بوخارين في كتابه Der Imperialismus und die Akkumulation des Kapitals، على الرغم من أنه لم يدحض الأطروحة الأساسية (على الرغم من اعتقاده أنه فعل ذلك). وهكذا، على سبيل المثال، كرست روزا لوكسمبورغ قدرا كبيرا من الاهتمام لمشاكل نقدية بحتة لتراكم رأس المال- سواء، على سبيل المثال، ينبغي للمرء أن يشمل انتاج السلع المالية (الذهب والفضة...) في القسم ١، كما فعل ماركس، أو كما اقترحت هي نفسها، ينبغي إضافتها إلى قسم ثالث. يبدو أنه في أماكن عديدة من الكتاب اختلط على روزا لوكسمبورغ السؤال: من أين يأتي الطلب؟ مع السؤال: من أين يأتي المال؟ ولكن لأن ذلك له أهمية ثانوية مع الأطروحة الأساسية، يجب علينا عدم تناولها هنا. مرة أخرى، في حين إذا تابعنا بدقة منطق روزا لوكسمبورغ الخاص حول الأمثلة المتعلقة بتجديد الانتاج، يجب أن نقول أن قوة حجتها أن جزءا من فائض القيمة في القسم ٢ لا يمكن أن يتحقق في ظل الرأسمالية النقية، روزا لوكسمبورغ نفسها تلخص حجتها كما لو أنها أثبتت أنه لا يمكن تحقيق أي جزء من فائض القيمة في ظل الرأسمالية النقية. بحسب ما ذكره ف. ستيرنبرغ في Der Imperialismus (Berlin, 1926), p.١٠٢.

مكانة روزا لوكسمبورغ في التاريخ

لم يبالغ فرانز مهرينغ، كاتب سيرة كارل ماركس، عندما اعتبر روزا لوكسمبورغ العقل الثاني بعد ماركس. لكنها لم تساهم فقط من خلال عقلها وحده خدمة لحركة الطبقة العاملة، إنما قدمت كل ما تملكه، قلبها، وشغفها، وإرادتها القوية وحياتها.

قبل كل شيء، كانت روزا لوكسمبورغ اشتراكية ثورية. وهي تعد من بين القادة الاشتراكيين الثوريين العظيمين ولها مكانة تاريخية خاصة في بلدها.

عندما انتشر الفكر الإصلاحي بين الحركات الاشتراكية التي كانت تطمح فقط إلى تحقيق "دولة الرفاه"، عبر الترقيع مع الرأسمالية، أصبح من الأولى توجيه نقد ثوري لهذه الألعوبة مع الرأسمالية. صحيح أن المعلمين الماركسيين إلى جانب روزا لوكسمبورغ- لينين، وتروتسكي، وبوخارين وآخرين- قادوا معركة ثورية ضد الفكر الإصلاحي. ولكن كانت الجبهة التي يواجهونها محدودة. في بلدهم، روسيا، كانت جذور هذا الفكر هشة وكان يكفيهم مجهود بسيط لاجتثاثه من جذوره. حيث كانت سيبيريا أو حبل المشنقة أحدهما كان مصير كل اشتراكي أو ديمقراطي، والذين كانوا يعارضون استخدام العنف من قبل الحركة العمالية؟ من في روسيا القيصرية كان يحلم بالطريق البرلماني لتحقيق الاشتراكية؟ من كان يدعو إلى تحقيق حكومة ائتلافية، ومع من كان يمكن إجراء تحالفات؟ حيث كانت وجود النقابات يكاد يكون معدوما، بحيث يمكن بذلك التفكير بالحل المناسب للحركة العمالية؟ لينين وتروتسكي وغيرهما من القادة البلاشفة الروس لم يحتاجوا إلى مواجهة الحجج الإصلاحية بتحليل مضن ودقيق. كل ما لزمهم هو مكنسة لكنسها بعيدا إلى مزبلة التاريخ.

في وسط أوروبا وغربها كان للفكر الإصلاحي المحافظ جذورا أعمق، وأكثر من ذلك وسط انتشار هذا التأثير على الأفكار وعلى مزاج العمال. وكانت حجج الإصلاحيين بحاجة إلى إجابة من شخص متفوق، هنا روزا لوكسمبورغ برعت في ذلك. في هذه الدول مشرط روزا كان سلاحا أكثر فائدة بكثير من مطرقة لينين.

في روسيا القيصرية جماهير العمال لم تكن منظمة في الأحزاب أو داخل النقابات. ولم يكن هناك مثل هذا التهديد لإمبراطورية قوية جرى بناءها عبر تصاعد دور البيروقراطية المنتشرة وسط الطبقة العاملة ووسط الحركة العمالية المنظمة تنظيما جيدا في ألمانيا، وكان من الطبيعي أن يكون لروزا لوكسمبورغ وجهة نظر مبكرة وواضحة إزاء دور البيروقراطية العمالية قبل لينين وتروتسكي. لقد فهمت قبل فترة طويلة أن القوة الوحيدة القادرة على كسر سلاسل البيروقراطية هي مبادرة العمال أنفسهم. وكتاباتها حول هذا الموضوع يمكن أن تشكل مصدر إلهام للعمال في الدول الصناعية المتقدمة، وتشكل مساهمة ذات قيمة كبيرة للنضال من أجل تحرير العمال من الفكر الإصلاحي البرجوازي المضر أكثر من أي ماركسي آخر.

في روسيا، حيث كان للبلاشفة دورا واسعا ومهما في تنظيم الاشتراكيين، حتى عندما لم يشكلوا الأغلبية، كما يدل اسمهم، فإن مسألة تصرف أقلية ماركسية إزاء الجماهير، بحيث تقودهم قيادة محافظة للغاية لم يشكل الأمر مشكلة بالنسبة لهم. لكن بقي لروزا لوكسمبورغ، إلى حد كبير، أن تتطور المنهج الصحيح لهذه المسألة الحيوية. ومبدأها الأساسي كان: البقاء إلى جانب الجماهير من خلال نشاطهم ومحاولة مساعدتهم. وقد عارضت مسألة الامتناع عن المشاركة في التيار الرئيسي للحركة العمالية، أيا يكن مستوى تطورها. ونضالها ضد العصبوية كان بالغ الأهمية للحركة العمالية في الغرب، وخاصة في المرحلة الحالية، حيث سياسة دولة الرفاه تعزز هذا الموقف. فالحركة العمالية البريطانية، بشكل خاص، عانت من عصبوية هنري هايندمان وحزبه "الفيدرالية الاشتراكية الديمقراطية"، ولاحقا من الحزب الاشتراكي البريطاني وحزب العمال الاشتراكي البريطاني، ولاحقا الحزب الشيوعي وخاصة (خلال مرحلته الثالثة) واليوم من قبل العديد من الملل، يمكن للحركة العمالية في هذا البلد أن تحصل على الإلهام من روزا لوكسمبروغ خاصة من معركتها المبدئية ضد التيار الإصلاحي بحيث لم تتهرب من خوض هذه المواجهة. وقد علمت أن الثوري لا يمكن له السباحة وسط تيار إصلاحي، ولا يمكن له الجلوس خارجا والنظر في الاتجاه المعاكس، إنما أن يسبح عكسه.

مفهوم روزا لوكسمبورغ لبنية المنظمات الثورية كان يرتكز على أنه يجب بناءها، من الأسفل، وعلى أسس ديمقراطية ثابتة، وبشكل يتناسب مع احتياجات الحركة العمالية في الدول المتقدمة وهو مفهوم قريب جدا من مفهوم لينين لأعوام ١٩٠٢- ١٩٠٤ الذي جرى نسخه وأضيفت عليه نكهة بيروقراطية على يد ستالينيي العالم بأسره.

ولقد فهمت بشكل واضح قبل أي شخص أن بنية الحزب الثوري، والعلاقة المتبادلة بين الحزب والطبقة، سيكون له تأثير كبير ليس فقط على النضال ضد الرأسمالية ولتعزيز قوة العمال، ولكن له تأثير كبير على مصير هذه السلطة نفسها. وقد أعلنت، وبنرة نبوية، على أنه من دون الحركة العمالية الديمقراطية فإن "المسؤولين وراء مكاتبهم" سيحلون مكان العمال في السلطة السياسية. "الاشتراكية"، كما تقول، "لا يمكن فرضها أو تنفيذها بواسطة مرسوم".

مزجت روزا لوكسمبورغ بين الروح الثورية والفهم الواضح لطبيعة الحركة العمالية في غرب ووسط أوروبا، وهذا الأمر جاء بفعل خلفيتها التي جاءت منها بحيث أنها ولدت في روسيا القيصرية، وأقامت لفترة طويلة في ألمانيا، ولنشاطها الواسع وسط الحركة العمالية في بولندا وألمانيا. أي شخص من مكانة أدنى كان سيستوعب فقط ظروف بيئة واحدة من البيئتين، ولكن روزا لوكسمبورغ لم تكن كذلك. فقد أحضرت إلى ألمانيا روحا "روسية"، روح العمل الثوري. وإلى بولندا وروسيا حملت معها روحا "غربية" يعتمد من خلالها العمال ذاتهم من أجل الديمقراطية والتحرر الذاتي.

وكانت لمساهمتها في مسألة تراكم الرأسمال قيمة لا تقدر للماركسية. وفي التعامل مع العلاقات المتبادلة بين الدول الصناعية المتقدمة والدول الزراعية واستنتجت فكرة عظيمة تقول أن الإمبريالية، حيث تستقر الرأسمالية لفترة طويلة، تهدد في نفس الوقت بدفن الإنسانية تحت أنقاضها.

كونها حيوية، ونشيطة وغير قدرية في مقاربتها للتاريخ، التي اعتبرته بأنه ثمرة النشاط البشري، وفي نفس الوقت عرت تناقضات الرأسمالية العميقة، روزا لوكسمبورغ لم تعتبر أن انتصار الاشتراكية أمر لا مفر منه. الرأسمالية، بحسب رأيها، يمكن أن تكون غرفة انتظار نحو الاشتراكية أو البربرية. نحن الذين نعيش مع شبح القنبلة النووية علينا فهم هذا التحذير واستعماله كحافز للعمل.

في أواخر القرن التاسع عشر وفي بداية القرن العشرين غرقت الحركة العمالية الألمانية، بسبب مرور عقود من السلام، بوهم أن هذا الوضع سيدوم للأبد. نحن الذين نسمع النقاشات حول نزع السلاح المسيطرة على اجتماعات منظمة الأمم المتحدة واجتماعات القمة، من الأفضل علينا التعلم من تحليلات روزا لوكسمبورغ حول الصلة الوثيقة بين الحرب والرأسمالية، وإصرارها على أن النضال من أجل السلام لا ينفصل عن النضال من أجل الاشتراكية.

ساهم شغف روزا لوكسمبورغ في الوصول إلى الحقيقة بارتدادها عن الفكر العقائدي. في فترة تحولت فيها الماركسية على يد الستالينية إلى حد كبير إلى عقيدة، ناشرة الخراب على مستوى الأفكار، كانت كتابات روزا لوكسمبورغ منشطة وواهبة للحياة. لم تكن تطيق أن تتحول إلى ساجدة أمام "السلطات المعصومة". وكتلميذة حقيقية لماركس كانت قادرة على التفكير والتصرف بشكل مستقل عن سيدها. على الرغم من استيعابها لجوهر تعاليمه، لم تفقد روحها النقدية إزاء تكرار بسيط لكلماته، تلك التي كانت تغير الوضع أم لا، وسواء كانت [الأفكار] مصيبة أو لا. استقلالية فكر روزا لوكسمبورغ هي أعظم إلهام للاشتراكيين في كل مكان وعلى الدوام. ونتيجة لذلك، لم يستنكر أحد بقوة كما فعلت هي فكرة تأليهها أو تحويلها إلى "سلطة معصومة"، كزعيمة مدرسة للفكر أو للعمل. وهي أحبت صراع الأفكار كوسيلة للاقتراب من الحقيقة.

خلال فترة عندما قام الذين يعتبرون أنفسهم ماركسيين بتدمير الماركسية من مضمونها الإنساني العميق، لم يقم أحد بما قامت به روزا لوكسمبورغ من خلال إنقاذنا من القيود الهامدة للمادية الميكانيكية. بالنسبة إلى ماركس(١) الشيوعية (أو الاشتراكية) هي "إنسانية حقيقية"، "مجتمع تكون فيه التنمية الحرة والكاملة لكل فرد مسألة أساسية". روزا لوكسمبورغ جسدت هذه المشاعر الإنسانية. وتعاطفها مع المظلومين والمقموعين كان دافعا مركزيا في حياتها. مشاعرها العميقة وتضامنها مع معاناة الناس وجميع الكائنات الحية تجسدت في كل شيء فعلته أو كتبته، سواء في رسائلها من السجن أو في كتاباتها العميقة في أبحاثها النظرية.

روزا لوكسمبورغ، مع ذلك، علمت جيدا أن حيث الإنسانية تعيش أقصى درجات التراجيديا فإن الدموع لن تحل شيئا. شعارها، كما شعار سبينوزا، ربما كان "لا تبكِ، لا تضحك، ولكن إفهم"، على

الرغم من أنه كان لها نصيبا وافرا من الضحك والدموع. وكانت طريقتها تكمن في الكشف عن اتجاهات التنمية في الحياة الاجتماعية من أجل مساعدة الطبقة العاملة على استعمال امكانياتها بطريقة ممكنة بالتزامن مع التطور الموضوعي. ونادت لتحكيم العقل بدلا من العاطفة.

تعاطفها الإنساني العميق ورغبتها الجادة نحو الحقيقة، وشجاعتها غير المحدودة وعقلها الرائع كل ذلك جعل منها اشتراكية ثورية عظيمة. وكما كتبت عنها صديقتها المقربة، كلارا زيتكن، في نعيها لها:"مع روزا لوكسمبورغ كانت الفكرة الاشتراكية هي المسيطرة على كل من قلبها وعقلها، شغفها الخلاق المتقد دون توقف. وكانت المهمة الكبيرة والطموح المسيطر على هذه المرأة المدهشة هو تحضير الطريق نحو الثورة الاشتراكية، لشق طريق التاريخ نحو الاشتراكية. أن تعيش تجربة الثورة، وأن تشارك في معاركها، يحقق لها ذلك أعلى درجات السعادة. مع إرادتها، وعزمها، ونكرانها لذاتها، وتفانيها من أجل الكلمات التي هي ضعيفة جدا، لقد كرست حياتها كلها من أجل الاشتراكية. قدمت نفسها من أجل القضية الاشتراكية، ليس فقط من خلال وفاتها المأساوية، ولكن عبر كل مراحل حياتها، يوميا وكل ساعة، من خلال النضال لسنوات عديدة... كانت السيف الحاد، والشعلة الحية للثورة".

—

الهوامش:

(١) كارل ماركس- الجزء الأول- الصفحة ٦٤٩